مشاهدات
أودوريك دو بوردنون الفرنسيكانى فى الصين
(توفى ١٣٣١م/ ٧٣١هـ)

دكتور

على أحمد السيد

مدرس تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

(فرع دمنهور)

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة ت: ٤٨٣٠١٦٣

٣٨١ ش قنال السويس الشاطبى ت: ٥٩٧٣١٤٦

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمْ

محتويات البحث

مشاهدات

أودوريك دو بوردونون الفرنسيسكانى فى الصين
(ت ١٣٣١م / ٧٣١هـ)

تمهيـــد :

بعـد القضـاء على سيادة الأوروبيين فى منطقـة الشـرق الأدنـى الإسـلامى بسقوط عكا عام ١٢٩١م. وفشل الحروب الصليبية هناك. وعقب عجـز البابويـة عـن القضاء على القوى الإسلامية لاستخلاص بيت المقـدس واستعادة النفـوذ فـى الشـرق، اتخذت المحاولات التالية أشكالاً أخرى خاصةً بعد أن فترت الروح الصليبية لدى القوى الزمنية تاركة فى ساحة الصراع القوة الدينية[١] ممثلـة فـى جهازهـا الكهنوتـى الكنسـى على رأسه البابوات ليخططوا وينظموا للمرحلة التالية، وفيها آثرت أن تُعمل الفكر إلى جوار السيف وسار هذا الاتجاه الجديد فى محوريـن أساسـيين : إذ ظهـر المفكـرون Les Propagandistes انطلاقا من الكنيسة ينادون بأفكار تهدف إلى تضييـق الخنـاق علـى المسلمين بمختلف الوسائل، ومنها فرض الحصار البحرى على دولة الممـاليك فـى مصـر والشام[٢]. أما الاتجاه الآخر، فتمثل فى محاولة الكنيسة الغربيـة تنصـير الشـرق المغـولى الوثنى لاستخدامه ضد المسلمين[٣].

---

(١) King, E.,The Knights Hospitallers in the Holy Land, London,1931, p. 265.

(٢) للتعرف على أبرز ملامح الزعامات الفكرية فى الكنيسة الغربية وأهـم المخططات السياسـية لـدى بعضهم، ومنهم : بيار دى بوا Pierre Du Bois ويليـم آدم Guillaume Adam، رومـان لول Roman Lull. راجع :
Atiya, A.S., The Crusade in the Later Middle Ages, First published, London 1938, pp. 47 - 74.

(٣) جوانفيل، جان دى : القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشـام، ترجمة : حسـن حبشـى، القاهرة ١٩٦٨م. صفحات متفرقة. راجع أيضًا :
Nowell, charles, E., Historical Prester John, Speculum, vol. 28, 1953, pp. 4 - 35.

وفى إطار الاتجاه الثانى، لعبت مؤسسة الرهبان الفرنسيسكان دورًا أساسيًا فى استكمال مخططات الكنيسة حيال الشرق عامة والصين بخاصة بفضل جهود عدد من رجالها البارزين، وقد ساعدهم فى ذلك بعض التجار المتحمسين لإيجاد قدم لهم هناك. وفى هذا الصدد سجل أحد الباحثين أن أول بعثة تبشيرية للرهبان الفرنسيسكان إلى الشرق قد أنفذها البابا جريجورى التاسع Gregory I X (١٢٢٧-١٢٤١م.) وذلك فى عام ١٢٣٣م. بعد أن وضع بعض القرارات المنظمة للعمل التبشيرى(١).

وفى عام ١٢٤٦م، برز اسم جون دو بيان - كاربينو Jean de Pain-Carpino بصفته من أوائل المبشرين المسيحيين موفدًا من قبل البابوية إلى بلاد المغول فى آسيا، وقد استغرقت رحلته نحو عامين عاد بعدها إلى إيطاليا ليقدم وصفًا تفصيليًا عن البلاد التى زارها مما شجع على تكثيف البعثات التبشيرية الأوربية إلى مدى أوسع فى القارة فى المرحلة التالية، فكانت بعثة وليم روبريك William Rubruk التبشيرية التى وصلت حتى بلاد منغوليا عام ١٢٥٢م. واستغرقت عامين تقريبًا وخلالها قابل خان المغول الأعظم مانكو Mongke (١٢٥١ - ١٢٥٩م.)(٢)، فأضافت رصيدًا من المعلومات عن هذه القارة العملاقة لمن جاءوا من بعده. أما عن دور التجار فى هذا

(١) Atiya, A.S., Op. Cit., pp. 238 - 239.

(٢) كان جون دو بيان - كاربينو قد خرج من مدينة ليون Lyon الفرنسية حاملاً رسالة من بابا روما إسكندر الرابع Alexander IV (١٢٥٤ - ١٢٦١م.) فى اتجاهه إلى الشرق، فاجتاز بوهيميا Boemia وليتوانيا Lituania وروسيا Russia حتى وصل بلاد المغول عند نهر الفولجا Volga فاستقبله باتو Batu ابن جانكيز خان واستلم منه الرسالة، أما وليم روبريك فقد خرج من القسطنطينية مبعوثًا من البابوية أيضًا حتى بلغ مدينة قاراقورم Caracorum حاملاً رسالة إلى الخان الأعظم وفى طريق العودة بلغ بلاد أرمينيا ثم مدينة طرابلس فى الشام التى كانت خاضعة للصليبيين آنذاك، ثم قابل الملك فى عكا ليسلمه رسالة كذلك، ولمعرفة المزيد، راجع :

Domenichelli, T., (ed.), Sopra la Vita e I Viaggi del Beato Odorico Da Pordenone dell'Ordine de'Minori Sotto ed. la direzione del P. Marcellino de Givezzo, Prato, 1881, pp. 16 - 19.=

الاتجاه فيعد الأخوان نيكولو ومافيو بولو Nicolo and Maffeo Polo أول من وصل من الأوربيين إلى الصين عام ١٢٥٥م. واستغرقت الرحلة نحو أربعة عشر عامًا عاصروا خلالها تولى قوبيلاى خان Qubilai khan – أحد أحفاد جنكيز خانٌ– عرش دولة الصين (١٢٦٠– ١٢٩٤م) الذى نقل مقر حكمه من قرة قورم Caracorum فى منغوليا إلى بكين التى ستذكر لاحقًا كامباليت Cambalit وفقًا للنص اللاتينى[1]. وعند عودتهما إلى وطنهما فينيسيا أرسل الخان المغولى معهما رسالة موجهة إلى البابا. وبعد عامين عادا برد البابا واصطحبا معهما ماركو Marco ابن نيكولو لتبدأ رحلتهم عام ١٢٧١م الشهيرة باسم رحلة ماركو بولو وفيها مروا ببلاد آسيوية عديدة حتى بلغوا الصين بعد ثلاثة أعوام من بدء رحلتهم فاستقبلهم قوبيلاى خان وأحاطهم برعايته بعد أن تسلم رد البابوية منهم. وبعد حوالى عشرين عامًا قضاها ماركو بولو وأبوه وعمه فى الصين عادوا إلى بلادهم. وقد أسهمت رحلتهم فى تزايد معلومات الأوربيين عن الصين والتبت وغيرها من البلاد الآسيوية.[2]

=ويشير الباحث هنا إلى أن نص رحلة أودوريك التبشيرية قد نشر أكثر من مرة مصحوبًا بمقدمة وبعض التعليقات فى أخريات القرن الماضى، وقد اعتمد فى دراسته هذه على النص اللاتينى وما يقابله باللغة الإيطالية نشر دو مينيشيلى فى عام ١٨٨١م.، وسوف يشار إلى ما تم اقتباسه من النص اللاتينى باسم صاحبه أودوريك، أما إذا تم الاستعانة بأفكار الناشر فسيذكر باسمه. أما الإصدار الثانى فكان فى عام ١٨٩١، نشر هنرى كورديه وترجمه هنرى يول إلى الإنجليزية عام ١٩١٣م. وبالمقارنة لوحظ فيها بعض التصريف، الأمر الذى دفع الباحث إلى الالتزام بالنص اللاتينى. ويمكن مراجعة ما نشره كورديه وكذلك ترجمته الإنجليزية فى كل من :

Odoric de Pordenone, les Voyages en Asie au XIV° Siècle du Bienheureux Frère Odoric de Pordenone, ed. Henri Cordier, Paris 1891, Odoric of Pordenone Cathay and the Way Thither, vol. II, Rev. ed. by H. Cordier, trans. by H. Yule, London, 1913, pp. 173 - 213.

(١) راجع الرسوم المختلفة لهذه المدينة وغيرها من بقاع الصين الرئيسية الواردة فى المصادر المختلفة فى ملحق خاص فى عقب الدراسة.

(٢) للتعرف على المزيد عن حياة ماركو بولو ورحلاته راجع:

Komroff, M., The Travels of Marco Polo, New York, 1930.=

التعريف برحلة أودوريك دو بوردونون:

إن هذه النبذة التمهيدية ضرورية لتساعد على فهم وقائع ومعلومات وأبعاد رحلة أودوريك دو بوردونون Odoric De Pordenone التى تشكل محور هذه الدراسة؛ فما من شك أنها أفادت من التجارب السابقة بحيث أصبح من المفترض أن تكون أكثر نضجًا. وفى الواقع فقد لوحظ فى الدراسات الجغرافية الحديثة أنها أثنت على ما ورد بالرحلة من مادة حتى أنها أعدت ضمن التجارب والخبرات الأوربية المبكرة التى شجعت على الكشوف الجغرافية. كما صنفت على أنها أهم الرحلات الأوربية إلى آسيا فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى.(١)

كما يمكن القول بأنها لا تقل أهمية عن رحلات ماركو بولو السابقة ولا رحلات ابن بطوطة اللاحقة عليه نظرًا للأمانة والدقة التى غلبت عليها. وفى هذه الدراسة سيتأكد لنا صدق هذه الرؤية بعد موازنة ما ساقه أودوريك من مادة خاصة بالصين بما ورد لدى التاجر البندقي والرحالة المغربى على وجه الخصوص، فضلاً عما يتيسر من مادة إضافية أخرى فى المصادر المعاصرة.

ولعل خير ما نبدأ به هو التعرف على صاحبها. ويعد أفضل تاريخ للراهب الفرنسيسكانى أودوريك ما ورد على لسان الأب جوليبوفيتش الذى قدم دراسة وافية مدققة ومتخصصة فى حياة الرهبان الفرنسيسكان أصحاب الرحلات إلى الشرق وكان منهم أودوريك، وذكر لنا عنه أنه ربما ولد فى عام ١٢٦٥م.، فى ضاحية فيلانوفا Villanova القريبة من مدينة بوردنون Pordenone المنتسب إليها، ودخل سلك الرهبنة الفرنسيسكانية ببلوغه الخامسة عشر من العمر، ثم أصبح قسًا بعد عشر سنوات، وحينئذ أظهر تحمسه الشديد للالتحاق ببعثات الفرنسيسكان التبشيرية فى

- ولعل أهم ما يذكر عن حياته أنه ولد حوالى عام ١٢٥٤م. فى البندقية، وقد عينه الخان المغولى ممثلاً له فى العديد من الزيارات الرسمية، وكلفه بمهام مختلفة أهلته لتولى منصب الحاكم فى إحدى المدن الصينية لمدة ثلاث سنوات. ثم عاد إلى البندقية عام ١٢٩٥م. وتوفى بها عام ١٣٤٢م.

(١) Panikkar, K.M., Asia And Western Dominance, A Survey of Vasco Da Gama Epoch of Asian History 1498 - 1945, London 1959, p.21 .

آسيا، فلاقى تشجيعًا من مقدم الطائفة، وكانت أول رحلة له فى الشرق فى عام ١٢٩٦م. بعد فترة قضاها فى عزلة الرهبان وفى رحلته الثانية، خرج من البندقية Venise متجهًا إلى الشرق الأقصى فى عام ١٣١٤م. أمضى هناك كل الفترة الممتدة حتى عودته إلى بلاده حوالى أوائل عام ١٣٣٠م. للإعداد للقيام برحلة ثالثة يصطحب فيها عددًا من الرهبان، بيد أنه سرعان ما خر مريضًا وهو فى طريقه إلى مقر تنصيبه راهبًا حيث مدينة أودين Udine الواقعة فى ناحية فريول – Frioul ولذلك مر بمدينة بدوا Padoue وفيها أملى على الأخ مارشزينو دو باسانو Fr. Marchesino de Bassano نص رحلته هذه وخلاصة تجاربه فى بلاد الشرق وما لبث أن توفى ودفن فى مدينة أودين فى الرابع عشر من يناير عام ١٣٣١م. وسط هالة من الاحترام والتبجيل لما بذله من جهد من أجل الكنيسة حتى عُدَّ من القديسين.[1]

والجدير بالذكر أن أودوريك لم يميز حين دون خلاصة تجربته الطويلة فى الشرق بين ما يتعلق منها برحلته الأولى وما يتعلق منها بالرحلة الثانية، فجاء النص غير محددٍ لتاريخ الوقائع بحيث يصعب تمامًا الفصل بين ما ورد من أحداث بالرحلتين، الأمر الذى فرض على الباحث التعامل معهما على أنهما رحلةً واحدة.

ومن ناحية أخرى، رأى الباحث الالتزام بأن يدرس مناطق الصين الواردة بالرحلة بشكل متتابع يتفق مع ترتيب زيارتها ذلك أنه كان يصعُب تصنيف مادتها إلى جوانب سياسية وحضارية متميزة دون تتبع أركان الرحلة ذاتها وفضلاً عن ذلك، فينبغى الإشارة إلى أبرز الصعوبات التى واجهت الباحث لإنجاز بحثه فقد ظهر المسمى الواحد للمواقع برسوم مختلفة لتعدد اللغات المستخدمة فى الدراسة مما استلزم التمحيص والمقارنة للاستدلال على حقيقة المسميات وتوحيدها وعليه آثر الباحث أن يستخدم اللغة العربية أساسًا للتعبير عن المسميات مرتكزًا فى الأصل على الألفاظ الفرنسية التى

---

(1) Golubovich, Girolamo, Biblioteca Bio - Bibliografica Della Tierra Santa -E Dell'Oriente Francescano, (Dal 1300 AL 1332), 5 vols, Florence, 1906 1927., Tomo III, p.p. 374 - 378.

تشكل لغة معظم مراجع البحث الرئيسية. وقد خصص الباحث فى نهاية دراسته هـذه ملحقًا يحصر فيه قدر إمكانه الرسوم المختلفة لاسم المكان الواحد.

وتبرز أهمية الرحلة فى أن من يقرأ نصها يدرك أنها تنطـوى علـى معلومـات مهمة، كما أن صاحبها كان على درجةٍ لها شأنها بـين رجـالات عصـره فـى الكنيسـة الغربية. وفيما يختص بما ورد بالرحلة ويتعلق ببلاد الصين، يلاحظ أنها ضمت زخمًا من المعلومـات عـن الجـانب الاجتمـاعى، ومـن ذلـك التركيبـة الدينية للمجتمـع وطوائفـه المختلفة، أجناسـه وأعراقـه المكونـة لـه، طبقاتـه، ثقافتـه وعمرانـه، بـل وأبـرز الأنشـطة الاقتصادية فيه. وكان صاحب الرحلة قد أخبرنا أنه حصل علـى مـا سـاقه مـن أفكـار وأخبار مـن خـلال المعايشـة وبمـا وجهـه مـن أسـئلة إلى أهـل البـلاد أنفسـهم بمختلـف طوائفهم[1]، الأمر الذى أثرى الرحلة لتعدد مصادر المعرفة. وأخيرًا فكتابات أودوريك تشتمل على مادة خصبة تعد أساسـية فـى التـأريخ الحضـارى للبـلاد التـى ارتحـل إليهـا وخاصة الصين خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى خاصة فى النواحـى الحضارية، تلك الأسرة التى حكمت الصين بصفتها إحدى الممالك المغولية الأربع التـى كانت تشكل إمبراطوريـة جنكيـز خـان لكنهـا كـانت تحتـل مكـان الريـادة بـين هـذه الممالك.

من ذلك نجد الدراسة تتجه نحو تناول حقبة مـن تـاريخ الإمبراطوريـة المغوليـة العريض، وهذا التاريخ يتطلب بطبيعة الحال إلمامًا بلغـات عديـدة للتعـرف علـى أبعـاده المختلفة مثل: المغولية، الصينية، الفارسية، العربية، التركية، اليابانية، الروسية، الأرمنيـة، الجورجية، اللاتينية ولغات أخرى[2]. وعليه تبرز مشكلة اللغة عائقًا أمام إجراء دراسـة شاملة ومتعمقة اللهم إلا بالرجوع إلى الترجمات. بيد أنـه مـن المناسـب الوقـوف علـى جزئية محددة من هذا التاريخ لتوضع تحت الفحـص والتحليـل والدراسـة بعـد الإمسـاك بزمام اللغات المتعلقة بها. وهذا هو ما حمس الباحث لإتمام هذه الدراسة.

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.) Domenichelli, T., p. 199.

(٢) Morgan, D., The Mongols, U.S.A.,1996, p.5

جغرافية وتاريخ الصين قبيل الرحلة :

ويجدر الإشارة قبل الخوض فى الدراسة إلى الملامح الأساسية لجغرافية الصين وكذلك تاريخها قبيل الرحلة، فخلال العصور الوسطى لم تكن جغرافيةُ الصين واضحة المعالم لدى الكتاب الأوربيين وعلى العكس من ذلك اهتمت المصادر الإسلامية بالحديث عن حدودها ومدنها وبقاعها الأخرى والكثير من مظاهرها الحضارية ونخلص من كل هذا الزخم إلى أن الصين تمتد من البحر (المحيط الهادى) شرقًا حتى التبت وبلاد الترك غربًا[1]، وأطراف مملكتها تصل لتضم بعضًا من التبت «ومن دان بدين أهل الأوثان منهم»[2] وأن بها «ثلثمائة مدينة كلها عامرة وعلى كل خمسين مدينة ملك» من قبل ملك الملوك[3]، وعلى ذلك فهى «بلاد واسعة ... عرضها أكثر من طولها .. تقطع فى شهرين ... وأنها كثيرة الماء، كثيرة الأشجار، كثيرة الخيرات، وافرة الثمرات، ومن أحسن بلاد الله وأنزهها»[4] بل فإن إقليمها لا يضاهيه إقليم من أقاليم الأرض ويخترقه النهر المعروف بآب حيا، معناه ماء الحياة (يقصد به نهر اليانج-تسى Yang - tse) ويسمى أيضًا نهر الصين ومنبعه من جبال بقرب خانبالق يمر فى وسط الصين إلى أن ينتهى إلى صينية الصين (أى فى الجنوب) وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر، إلا أن هذا أكثر عمارة وعليه النوافير الكثيرة.[5]

---

(1) ابن خرداذبة (ت حوالى ٢٦٠هـ/٨٧٣ م): المسالك والممالك، ليدن ١٣٠٩ هـ./١٨٩٢م.ص٦٦.

(2) الإصطخرى (ت القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسينى، القاهرة ١٩٦١م.، ص ١٠.

(3) ابن النديم (ت ٣٨٣هـ. / ٩٩٣م.) : فهرست ابن النديم، المطبعة الرحمانية، ١٣٤٨هـ. ص ٤٩١، راجع أيضًا : الإدريسى (ت ٥٦٠هـ. / ١١٦٤م.) : نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمداين والآفاق، نشر: راش موللر، ليدن ١٨٩١ م.، ص ١٦٦.

(4) القزوينى (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣ م) : آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠م. ص ٥٣.

(5) ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ. / ١٣٧٧ م.) : رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، كتب هوامشه وعلق عليه : طلال حرب، الطبعة الثانية، بيروت ١٤١٣ هـ. / ١٩٩٢م. ص ٦٢٩.-

أما عن تاريخ الصين، فقد خضعت لحكم أسرة سانج Sung القوية منذ عام ٩٦٠ حتى عام ١١٢٥م. واقتصر نفوذ حكامها على الجزء الجنوبى من الصين، وظل الوضع السياسى مستقرًا بشكل نسبى حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى، حين ذاع صيت العنصر المغولى بعد اتحادهم والتفافهم حول جانكيز خان وكانت البلاد التى يغلب عليها العنصر التركى لا تعرف عن هذه القبائل إلا القليل بحكم الجيرة وبعض المعارك المتبادلة كما كانت محدودة الاتصالات الخارجية بالغرب اللهم إلا بالتجار الأوروبيين القلائل وبعض البعثات التبشيرية النسطورية Nestorianism التى حققت نجاحًا محدودًا فى الدعوة إلى المسيحية على هذه العقيدة(١). وفى عام ١٢١١م.-١٢١٢م. سقط معظم شمالى الصين فى يد القوات المغولية، ثم أكمل قائدهم جانكيز خان غزوه للمنطقة بالاستيلاء عنوة على كامباليت فى عام ١٢١٥م. وعاد إلى عاصمته

=Barthold,W., Turkestan Down to The Mongol Invasion, trans. from the original.

(١) تنتسب النسطورية إلى نسطور الذى اختير عام ٤٢٨م. بطريركًا للقسطنطينية؛ ولد فى شمال الشام وتدور أهم معتقداته حول طبيعة السيد المسيح فهو فى نظره ذو طبيعتين : إلهية وبشرية ولذا اتهم نسطور بالهرطقة فى مجمع أفسوس عام ٤٣١م. ونفى إلى مصر عام ٤٣٦م. ولكن أساقفة الشرق أيدوه، فانتشرت معتقداته فى جهات كثيرة هناك. انظر : عادل هلال : العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٧م. ص ٢٠٦ - ٢٠٧، ح ٥٢؛ وقد أكدت جهود المهتمين بدعم الديانة المسيحية فى فارس على أن يمدوا نشاطهم انطلاقًا منها إلى الشرق الأقصى حيث أرسلوا مبشرين نساطرة إلى بلاد الصين. ولمعرفة المزيد عن الدعوة النسطورية المبكرة، انظر : ألبير أبونا : تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية من انتشار المسيحية حتى مجئ الإسلام، ط ١، ٣جـ، بيروت ١٩٩٢م. جـ ١، ص ١٤٣ وبرغم أن السلطات سمحت باعتناق النسطورية فلم يكن لها وزن كبير بين العقائد الأخرى فى الصين، وتأثر وضعها بالأوضاع السياسية، فبينما تعرض معتنقوها للاضطهاد فى الجنوب حوالى عام ٨٤٥ م، لم يتأثر بنو ملتهم فى الشمال بذلك، ولكنهم ظلوا يمثلون طائفة دينية داخل المجتمع الصينى حتى أواسط العصور الوسطى، راجع :

Wittfogel, K.A., and, Chia-Shêng, Fêng, History of Chinese Society, Liao (907 - 1125), New York 1949, pp. 214, 291, 307.

قاراقورم فى العام التالى. وفى الجولة الثانية تم له الاستيلاء على مملكة كين فى الغرب ثم بعث بمبعوثيه فى عام ١٢٢١م. إلى ملك سانج فى الجنوب بغرض التحالف، وعُقدت المعاهدات بين الطرفين ولكن تتابعت الحملات المغولية حتى تمكن قوبيلاى خان من فرض سيادته(١). على مجمل بلاد الصين بما فيها القسم الجنوبى وتم القضاء تمامًا على حكام أسرة سانج فى عام ١٢٧٩م. / ٦٧٧هـ.(٢). وكان ذلك إيذانًا بتأسيس أسرة يوان Yuan وفى ظلها عانى أبناء الصين من الهان والأقوام الأخرى من الاضطهاد العنصرى حتى قضى عليها عام ١٣٦٧م وقد قسم حكام يوان السكان إلى أربع درجات : المغول فى الدرجة الأولى وشعب سمو فى الغرب فى الثانية وشعب الهان فى الثالثة وشعب الهان الجنوبى فى الأخيرة(٣). وإضافة إلى هذه الإمبراطورية نجح المغول فى تأسيس ممالك شاسعة لهم فى الغرب.

أما عن خط سير أودوريك فى ذهابه إلى الصين، فقد مر فى طريقه بالقسطنطينية Constantinople، وتبريز Tabriz، وبغداد Baghdad، وهرمز Ormuz، ثم ارتحل بحرًا إلى مالابار Malabar حيث الساحل الشرقى للهند، ثم سيلان Ceylon، ثم مدراس Madras. ومن هنا ذهب إلى جزيرتى سومطرة Sumatra وجاوا Java فانتقل إلى كيامبا Ciampa وهى إقليم الهند الصينية حاليًا. ومن هناك

---

(١) Barthold, W., Turkestan Down to The Mongol Invasion Trans. From the original Russian and revised by the Author with the assistance of Gibb, H. A. R., Second Edition, London 1928, pp. 393 - 394, 404, CF. Also Morgan, D, Op. Cit, pp. 61 - 72, 178.

ومن المراجع التى سلطت الضوء على العناصر القبلية المؤلفة لشعب الصين انظر : السيد الباز العرينى : المغول، بيروت ١٩٨٦م. ص ٢٨ - ٣٦.

(٢) الهمذانى (٧١٩هـ. / ١٣١٨م.) : جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيز كاترين خان من اوكتاى قاآن إلى تيمور نيورقا آن، نقله إلى العربية فؤاد عبد المعطى الصياد، مراجعة : يحيى الخشاب، بيروت ١٩٨٣ م. م٢، جـ ٢، ص ٢٧٠.

(٣) أيرين فرانك، ديفيد براونستون : طريق الحرير، ترجمة : أحمد محمود، القاهرة ١٩٩٧م، ص ٣١١، ج ١.

ارتحل إلى القسم الجنوبى من الصين الذى أورده باسم إقليم مانزى Manzi حيث جاب العديد من المدن والبقاع، وعادة ما كان يرتحل سيرًا وحانيًا، وفقًا لقواعد الرهبنة الفرنسيسكانية فى محاذاة الأنهار قاطعًا الصين الوسطى، ثم ختم رحلته بأن وصل إلى شمالىّ الصين التى اطلق عليها كاثاى Cathay أى بلاد الخطا وهو المسمى العربى لها[(١)] واصفًا فيها العاصمة كامباليت بمزيد من التفصيل. وفى الحقيقة فسوف تتناول هذه الدراسة بالتحليل والنقد المقارن المعلومات التى سجلها صاحب الرحلة، عما شاهده فى هذه البلاد البعيدة الشاسعة.

مشاهداته فى سونستالاى :

كانت أولى المدن الصينية التى وصل إليها أودوريك هى مدينة أطلق عليها اسم **سونستالاى** Senstalay وهو مسمى قريب من الاسم الشائع لها فى هذا العصر كونسكالا Conscala، فقد عبرت بعض المصادر الإسلامية المعاصرة عن ذات المدينة بمسمى تازيكان جين كلان كما أدرك ابن بطوطة الذى زارها مدة أسبوعين بعد حوالى عشر سنوات من زيارة أودوريك القصيرة لها، أن الأهالى يسمونها صين كلان. ومن خلال وصف كل من المبشر الفرنسيسكانى والمصادر الإسلامية يتبين أنها مدينة كانتون Canton [(٢)]. وجاء فى وصف أودوريك لها أن حجمها أكثر اتساعًا من ثلاثة

---

(١) الإدريسى : المصدر السابق، ص ١٤٩. الهمذانى : المصدر السابق م٢، جـ ٢، ص ٢٧١؛ ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٨، ٦٤٠. ويعد الهمذانى أفضل من تحدث عن جغرافية الإقليم ومما أضافه «ولايات الخطا بلاد واسعة جدًا وممتدة الأطراف، وعامرة إلى أقصى حد.. وليس فى كل الربع المسكون بلاد تضارعها قط من حيث العمران وكثرة الخلق.. وتمتد خان باليغ [خان باليق - بكين] وسط بلاد الخطا.. ويقصدها الناس بالسفن. ويكثر فيها المطر بسبب قربها من البحر وبعض تلك البلاد حار، وبعضها بارد».

(٢) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., P. 178

الهمذانى : المصدر السابق، م٢، جـ ٢، ص ٢٧٩؛ ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٥. ومسمى كونسكالا أوجين كلان لفظة فارسية، تعنى الصين الكبرى. وقد استدل الباحثون باستخدام أودوريك للفظات الفارسية على إلمامه بهذه اللغة. ويضيفون أنها كانت تستخدم =

أضعاف حجم مدينة البندقية، وهى على ضفة نهر عظيم وعلى بعد مسيرة يوم واحد من المحيط الذى كانت مياهه تتوغل لمسافة كبيرة فى اليابس بفعل المد، أما الميناء فلا يمكن مقارنته بأية موانئ «إذ توجد به أعداد من السفن وحركة ملاحة أنشط من مثيلاتها فى إيطاليا كلها»(١). وكان العرب سباقين فى وصف المدينة التى أطلقوا عليها اسم خانفو وأعدها ابن خرداذبة «المرفأ الأكبر.. وفيها الفواكه على اختلاف أنواعها والبقول والحنطة والشعير وقصب السكر» وينطبق عليه ما أطلقه على باقى الموانئ الصينية الهامة بقوله : «كل مرفأ من موانئ الصين نهر عظيم تدخله السفن ويكون فيه المد والجزر»، ويؤكد ابن الفقيه الهمذانى ذلك ذاكرًا أنه إذا ما جاوزت السفن البحار قاصدة الصين «صرت إلى ماء عذب يقال له خانفو، يكون فيه مد وجزر فى اليوم والليلة مرتين»(٢). وهكذا فبرغم الفارق الزمنى بين ما جاء فى وصف أودوريك والجغرافيين العرب إلا أن معظم وصف كانتون متفق عليه.

وفى أول انطباع له عنها، نجده يذكر أن كل شىء فى هذا العالم الذى رآه جديدًا يبدو فريدًا ومدهشًا، إذ تغمر زائرها السعادة حين تقع عينه على ما فى البلاد المطلة على المحيط. وما لبث أن لفت نظرة طبيعة الشعب الصينى ذلك أنه «لا يمكن حصره كذلك فإن الخبز والنبيذ والأرز واللحم والأسماك وكل ما هو ضرورى للحياة يوجد بوفرة. وهنا، نجد كل الرجال إما حرفيين أو تجارًا؛ ولذا فالمستوى المعيشى لديهم مرتفع، حتى أنه لا يوجد متسول واحد فيما بينهم»(٣). وهذا الانطباع الأول

= فى الأعمال التجارية نظرًا للدور الكبير الذى لعبه الفرس فى التجارة مع بلاد الشرق الأقصى خاصة خلال القرن الرابع عشر الميلادى. انظر :

Matrod., H., Odoric de Pordenone (1265 - 1331), son "Chemin de Pérégrimation", Paris, 1938, p. 107.

(١) Odorio Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., Loc. Cit.

(٢) ابن خرداذبة : المصدر السابق، ص ٦٦؛ انظر أيضًا : ابن الفقيه الهمذانى (ت حوالى ٣١٨هـ./٩٣٣م.) : كتاب البدان، تحقيق : يوسف الهادى، بيروت ١٤١٦هـ. / ١٩٩٦م. ص٦٨.

(٣) Matrod, H., Op. Cit, p. 107.

عن المجتمع فى كانتون يؤكده كتابات الرحالة المسلمين إذ عبروا عن ارتفاع كثافة السكان فيها بصفة عامة فذكروا أن أعدادهم لا تحصى[1] كما إنه من المعروف عن تلك البلاد منذ القدم تلك الظاهرة حتى يومنا هذا. من ناحية أخرى أكد هؤلاء الرحالة على الحقيقة التى ذكرها أودوريك بشأن اشتغال الصينيين فى الحرف والتجارة إذ يقول أحدهم : «أهل الصين من أحذق خلق الله كفابنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم». على حين ينص آخر على أن : «أهل الصين أعظم أحكامًا للصناعات وأشدهم إتقانًا فيها وذلك مشهور من حالهم قد وصفهم الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيها». ويرى ثالث أنهم أحذق الناس فى الصناعات وفى النقش والتصوير «يعمل الصبى منهم ما يُعجز أهل الأرض»[2] . وبالتمعن فى كلمات أودوريك ذاتها المؤكدة على ارتفاع مستوى المعيشة ووفرة السلع الأساسية نستشف وجود الحرف والصناعات القائمة عليها مثل الزراعة والصناعة والرعى وصيد الأسماك.

وفى وصف الجنس السائد فى سونستالاى، يذكر أودوريك أن رجالهم ذوى قامة متوسطة، كما أن لونهم يميل إلى الشحوب، ولهم لحى طوال جدًا سوداء ويشبهون القطط. أما النساء؛ فيتميزن بحسنهن، ويعيش الكثير منهن فى حياة مفعمة بالمرح والاحتفالات[3] . وكان ماركو بولو قد تحدث عن نساء الصين فى بعض الجهات فأقر بما كن عليه من حسن، فذكر أنهن شقراوات مجردات من شعر الجسم ذوات قد جميل إذ إن الجمال هو الصفة التى يقدرها الجميع ولذا فالرجال كثيروا الولع بمجالس النساء كما تعددت الزوجات متى كان الرجل قادرًا على إعالتهن. ولم تخف حال نساء الصين الجنوبية عن ابن بطوطة أيضًا فأشار إلى رخص ثمن الجوارى نظرًا «لأن أهل

---

(١) الإدريسى : المصدر السابق، ص ٥٧.

(٢) المسعودى (ت ٣٤٥هـ. / ٩٦٠ م.) : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٢جـ، بيروت ١٣٨٦هـ./ ١٩٦٦م. جـ ١، ص ١١٠، ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣١، ابن الوردى : المصدر السابق، جـ ١، ص ٨٥.

(٣) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., P. 177.

الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم، فليس ذلك عيبًا عندهم»[١]. ومن ثم تتضافر المعلومات فى نسيج واحد يثبت أن المرأة الصينية المغولية عادة ما كانت تسلك سلوكًا متحررًا وتلعب دورًا إيجابيًا فى مجتمعها.

ومما أدهش أودوريك أيضًا أنه قابل مسيحيين فى سونستالاى مكونًا بعض العلاقات معهم، ومن ناحية أخرى كون علاقات مع كل من المسلمين والبوذيين Buddhistes [٢]. وبعض القادة العسكريين العاملين فى الجيش الامبراطورى الذين أمدوه بالمعلومات التى سألهم عنها، ومما عرفه منهم أن هذا التوزيع للطوائف الدينية هو ذاته فى بقية إقليم جنوبى الصين، وكان أشد ما تألم له هذا المبشر وصدمه؛ علمه بأن الوثنية هى العقيدة السائدة فى مجتمع هذه المدينة بل والإقليم، ولذا فسرعان ما انبرى فيما بينهم موجهًا خطبة حماسية داعيًا إياهم إلى الإيمان بالله[٣]. وفى الحقيقة يعد ذلك

---

(1) Marco Polo, The Travels of Marco Polo (the Venetian), Revised from Marsden's Translation and Edited with Introduction by Manuel Komroff, New York 1930, pp.99-100.

ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٢.

يجدر الإشارة إلى أن الباحث أفاد مما ورد بالترجمة العربية لرحلات ماركو بولو من حواش لم ترد فى النسخة الإنجليزية. راجع : ماركو بولو : رحلات ماركو بولو، نشرها بالإنجليزية مارسدن وترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٧٧، ص ١١٦، ج ١.

(٢) ينسب هؤلاء إلى الزعيم الدينى جوتاما بوذا المتوفى عام ٤٧٠ ق.م وتنتشر هذه العقيدة فى أجزاء كبيرة فى شرقى آسيا ومنها بعض أقاليم الصين برغم ظهورها فى أول الأمر فى الهند. وتتلخص فى أن الألم جزء لا يتجزأ من طبيعة الحياة وتكوينها وأن الإنسان يستطيع الخلاص منه بالتطهير الذاتى فى الناحيتين الأخلاقية والعقلية. وينتمى البوذيون فى الصين إلى الشعبة الأولى من هذه العقيدة إذ إنهم يعتقدون فى وجود الله. أما الشعبة الثانية فتقوم على فكرة قتل شهوات النفس وعندما اعتنق قوبيلاى خان هذه العقيدة زاد نفوذها كثيرًا. ولمعرفة المزيد عن هذه العقيدة، راجع:

Turner Ralph, The Great Cultural Traditions, The Foundations of Civilization, vol. I, New York - London 1941, pp. 378 - 403.

(٣) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,pp. 177 - 178 .

تقييمًا للأوضاع الدينية بل والاجتماعية فى الصين الجنوبية ولكن إلى أى حد تطابق هذا التقييم مع الواقع التاريخى ؟

فالمسيحيون المشار إليهم قد يكونوا من النساطرة الذين انتشر مذهبهم الدينى منذ القرن السابع الميلادى وكانت بعض القبائل التركية قد تنصرت مثل : الأيغور، والجغتاى، والكرايت، وامتد نفوذ القبيلة الأولى فى وسط الصين وجنوبها حتى أواسط آسيا لما بعد عصر جنكيز خان[١] ، ولذا فيعتقد فى أن النصارى الذين قابلهم أودوريك كانوا ينتسبون لإحدى هذه القبائل. وثابت أن المدينة كانت تضم فى وسطها كنيسة عظيمة تحدث ابن بطوطة عنها طويلاً كانت تلعب دورًا اجتماعيًا كبيرًا بدعم من الأوقاف التى أوقفت عليها[٢]. أما المسلمون فكان لهم باع طويل فى جهات الصين الساحلية والغربية وسجل ابن خرداذبة فى القرن التاسع الميلادى قيام علاقات تجارية وثيقة بين المسلمين والصينيين حينما أشار إلى الطريق التجارى الواصل بين البصرة والصين حيث كان كثير من سفنهم يرسوا فى ميناء خنفو[٣] (سونستالاى). وفيما يختص بالوثنيين معتنقى البوذية الذين تحسر المبشر لكونهم أهل العقيدة السائدة فقد وقفت عليهم المصادر الإسلامية فأفاض المسعودى فى الحديث عنهم وخلاصة ما ذكره أن ديانة أهل الصين لم تنحصر فى البوذية إذ إنها ديانة دخيلة (من الهند) وإضافة إلى ذلك فهم يعتقدون بالسماء والقوى السماوية وفى أرواح الآباء والأجداد فكانوا يعملون لها تماثيل من الأحجار والأشجار والحديد والذهب والفضة. وقال القزوينى عنهم : «دينهم عبادة الأوثان وفيهم مانوية ومجوس ويقولون بالتناسخ ولهم بيوت للعبادات» ويؤكد ابن الوردى ذلك بقوله : «مذاهبهم مختلفة : مجوس، وأهل أوثان،

---

[١] لويس شيخو اليسوعى : النصرانية بين قدماء الأتراك والمغول، مجلة الشرق، العدد ١٦، ١٩١٣م، ص ٧٥٦ - ٧٦٠.

[٢] ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٥.

[٣] ابن خرداذبة : المصدر السابق، ص ٦٦.

وأهل نيران»(١). وفى ذلك اظهار للبوذية على ما عداهـا مـن عقـائد بدليـل أن الخـان كان معتنقًا لها(٢). وبعد غزو المغـول للصـين اختلطـوا بطوائـف المسـلمين والمسـيحيين واليهود وأظهروا التسامح فى معاملتهم لهم ومنحوهم الحرية التامة فـى إقامـة شـعائرهم ضمانًـا لالتفـافهم مـن حولهـم(٣). ومـن ثـم يتبـين وضـوح رؤيـة أودوريـك لطوائـف سونستالاى الدينية نظرًا لاتفاقها مع الواقع الذى أقره المعاصرون، بل والدراسات الحديثة.

ومن الأشياء التى دعت هذا المبشر إلى إبداء دهشته، ما رآه من طيور ضخمة فى أثناء تجواله فى سوق سونستالاى، إذ ذكر أن الأوز هناك أكبر حجمًا من مثيله فـى العالم أجمع، بل هو الأفضل مذاقًا فالواحدة منها تبلغ ضعف حجم الأوزة فى البندقيـة : «أما الدجاج وبقية الطيور، فهى آية من الروعة والجمال أيضًا». هذا وقـد اعتـاد أهـل سونستالاى اصطياد الثعابين الضخمة وأكلها، وكانوا يعدونها من أشهى أطعمتهـم(٤). وقد أكدت المصادر المعاصرة اشتهار المدينة بأسواقها العظيمـة كمـا أكـدت علـى كـبر حجـم الطيـور فجعلت الدجاجة الصينية أكبر من الأوزة المغربية، أما حجـم الديك

(١) المسعودى : المصدر السابق، جـ ١، ص ١٠٤ – ١١٠، القزوينى : المصدر السابق، ص ١٣٥؛ ابـن الوردى : (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) : تتمة المختصر فى أخبار البشـر المعروف بتـاريخ ابن الـوردى، جزءان، القاهرة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٨م، جـ ١، ص ٨٥. والمانوية ديانة انتقلت مـن فـارس إلى الصين حيث انتشرت فيها ولها مفاهيم خاصة حول فكرة التضاد فى الكون كالليل والنهار والغنـى والفقـر.. وفكرة التألم وكيف يتعرض إليه الجميع حتى الحيوانات، فالله عز وجل فى نظرهـا غنـى عـن تعذيـب خلقه. انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقـات بين العرب والصين، ط١ القـاهرة، ١٣٧٠هـ – ١٩٥٠م، ص ٦٩ – ٧٩.

(٢) Marco Polo, Op. Cit., pp. 121 - 122.

(٣) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام : بحث فى تاريخ نشر العقيـدة الإسلامية. ترجمه إلى العربيـة حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوى، القاهرة، د.ت. ص ١٩١.

(٤) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,p.178, Marco Polo, Op. Cit., p. 152.

فيعادل حجم النعامة[١]. ومن ناحية أخرى أشار أودوريك إلى أن نبات الزنجبيل ذو ثمن بخس للغاية وأنه كان يصنع منه المربى. كذلك فالأهالى هناك كانوا يصطادون نوعًا من الثعابين بغرض الطعام، حتى أنه يعد أفخم الوجبات قاطبة هناك[٢]. وهكذا فمن المعتقد أن المبشر نجح فى أن يسوق المادة التاريخية الكافية لتكوين فكرة ولو مبسطة عن مدينة سونستالاى فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى.

مدينة زيتون :

توجه أودوريك فى المرحلة التالية من رحلته التبشيرية شمالاً بشرق إلى مدينة أطلق عليها **زايكون** Zaycon التى ذكرها ماركو بولو من قبله بنحو ثلاثين عامًا باسم زيتون Zeiton وهى التسمية الأقرب إلى النطق العربى لها الوارد على لسان ابن بطوطة الزيتون[٣] ولذا يفضل استخدام هذا الاسم وهو يتطابق مع مدينة توان - تشاو- فو أو تيوشان - تشو - فو Tchiuan - tchoufou حاليًا[٤]. وذلك بعد إبحاره من سونستالاى (كانتون) فى رحلة استغرقت سبعة وعشرين يومًا. ومما لفت نظره فى زيتون اتساع حجمها مقدرًا إياه بضعف حجم مدينة بولونيا Bologna الإيطالية، وكذلك تعدد الديانات بين أهلها؛ وبالغ فى تقدير حجم المعابد حين ذكر أن الواحد منها يضم ثلاثة آلاف ناسك، ومجموع ما بها من أصنام أحد عشر ألف صنمًا.

---

(١) ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٠، ٦٣٥.

(٢) Matrod., H., Op. Cit, p. 108.

(٣) Odorico Da Pordenone, (ed.) Domenichelli, T., p. 179, Marco Polo, Op. Cit., p. 254.

ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٢٩، ٦٣٤.

(٤) Matrod, H., Op. Cit., p. 108.

ويضيف أن المدينة تقع فى إقليم فو - كيان Fo - Kien فى مواجهة جزيرة فرموزا Formosa وقد أحاطتها المياه من كل جانب تقريبًا منذ عهد بعيد - وهذا يرجع إلى ما تعرضت له من ظروف طبيعية مختلفة الأمر الذى أدى إلى نزوح الأهالى منها بأعداد كبيرة، بيد أن الباحث : بدر الدين حى الصينى يرى أن الزيتون تطابق مدينة جوان شو الآن. انظر : بدر الدين حى الصينى : المرجع السابق، ص ١٢٩ - ١٣٠.

وتحتوى المدينة على صورة مكررة من كل شيء فى العالم حتى يجد الإنسان فيها كل ما يحتاج إليه. وحدد موقعها عند مصب أحد الأنهار العظمى حيث تنشط حركة السفن[١]، وقد تبين أنه ذلك النهر العظيم يانج -تسى الذى يرد أحياناً بمسمى كيانج Kiang حيث يكون شديد العمق وصالح للملاحة البحرية للسفن الضخمة. وإذا ما كان ذلك هو انطباع هذا المبشر عن المدينة فهناك أبعاد أكثر عمقًا أوضحها ماركو بولو فى رحلته حين وصفها حوالى عام ١٢٧٧م. بأنها فخمة وجميلة ويشتهر مرفأها بما يحتويه من سفن محملة بالبضائع التى توزع إلى داخل البلاد إضافة إلى سفن أخرى محملة بكميات هائلة من الفلفل المعد للتصدير إلى العرب. ويحتشد فى مينائها التجار حتى يصعب وصف كثرتهم فبدا من أعظم موانى العالم وأشدها سعة ويسرًا[٢]. وقد أكد الرحالة المسلمون المعاصرون أيضًا على أهمية الميناء من الناحية التجارية؛ ومما قيل : «مرساها من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها....» وأضاف هؤلاء بعدًا آخرًا لأهمية المدينة لما ضمته من صناعات عديدة[٣].

وفى زيتون كانت للراهب أودوريك وقفة للحديث عن أمور دينية؛ ومما رواه عن العقيدة البوذية أنه حرص على أن يرى بنفسه طقسًا اعتاد معتنقوها على تأديته للأصنام يقضى بتقديم أطعمة ساخنة فى أطباق تُقرب إليها، وبتصاعد البخار إليها تكون عملية إشباعها قد تمت، وفى الواقع لم يشبعوهم وإنما أشبعوا أنفسهم لأنهم هم الذين التهموا هذا الطعام، أما فيما يخص المسيحية فقد اهتم بذكر أبنيتهم الواقعة فى المدينة وذلك على يد رائد الحركة التبشيرية فى الصين وهو جون دومون - كورفن Jean de Mont Corvin بداية من عام ١٢٩٣م.[٤] . كذلك أفاض أودوريك فى

---

(١) Odorico Da Pordenone, Loc. Cit.

(٢) Marco Polo. Op. Cit., p. 254.

(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٤.

(٤) من المعتاد أن يذكر المبشر جون فى جميع الدراسات التى تتناول موضوع الإرساليات التبشيرية الفرنسيسكانية إلى آسيا نظرًا لجهوده الضخمة التى أهلته ليكون من أهم وأبرز العناصر الفعالة فى هذا المضمار. وخلصت إحدى الدراسات إلى أنه ولد فى مونت كورفينو بالقرب من=

الحديث عن قصة شهداء مدينة تانا Tana التي وردت عنده بمسمى شانام Chanam. وكانت أحداثها قد شغلت حيزًا مهمًا مما قصه عن الهند ذاكرًا أنه حمل رفات هؤلاء الشهداء لدفنهم بالدير الملحق بالكاتدرائية في زيتون[1].

= سالبونو الإيطالية حوالي عام ١٢٤٦م.، وأنه خدم في بلاط الإمبراطور الألماني. أرسل من قبل مقدم جماعة الفرنسيسكان بعد انضمامه إليها في بعثة إلى الشرق عام ١٢٨٠م. بغرض التبشير في فارس وأرمينيا وتعددت بعثاته حتى استقر في الصين ويرى أحد الباحثين أنه برغم شهرته إلا أنه لم يُعرف إلا القليل عن أنشطته التبشيرية وكانت الإرساليات التي أشرف عليها من أوروبا إلى الصين بداية من العام المذكور، إضافة إلى المقبرة اللاتينية المدفون بها هناك قد عكست مدى جهود هذا الرجل في هذه البلاد حتى أنه توفي بها عام ١٣٢٨م. وتضيف دراسة أخرى أن ضريحه تحول سريعًا إلى مكان يقصده المسيحيون بغرض التبرك به إذ أصبح قديسًا في نظرهم. وبشكل عام فهي شخصية محورية في تاريخ عملية التنصير بين المغول وتكتسب أهمية خاصة بهذا البحث نظرًا لمعاصرته لبعثه أودوريك التي الدراسة بصددها، ولمعرفة المزيد انظر :

Moule, A.C., Christians in China Before the year 1550, London, 1930, p. 167, Morgan, D., Op. Cit., p. 131, Marcellin deCivezza, Histoire Universelle des Missions Franciscaines, Traduit de l'Italien par Victor Bernardin de Rouen, III vols, Paris, 1898, vol I, pp. 81 - 313.
Odorico Da Pordenone, (ed.) Domenichelli, T.,p. 179.

(1) تقع تانا على بحر زاباكي zabacy في إحدى الجزر بالقرب من بومباي Bombay، ذكر أودوريك قصة شهدائها باستفاضة وهي تتلخص في أن أربعة من الرهبان الفرنسيسكان ضلوا طريقهم البحري بسبب الرياح فوصلوا إلى تانا فوجدوا بها خمسة عشر أسرة مسيحية أغلبهم من النساطرة وبرغم من أن المسلمين كانت لهم السيادة فإن أهل المدينة قد حافظوا على بوذيتهم، ونتيجة لخلاف عائلي بين الرجل المسيحي الذي استضافهم وزوجته تقدمت بشكوى إلى قاضي المدينة المسلم، فقام باستدعاء الشهود فكانوا ثلاثة من الرهبان ويبدو أن وجود هؤلاء بغير إذن أقلق السلطات الإسلامية فدخلوا في مناظرة حول العقيدة وسرعان ما ظهر الاختلاف بل تطاول الرهبان على الإسلام، وهنا تجلى الجانب الأسطوري فيما رواه أودوريك بأن قام المسلمون الثائرون بإيقاد النيران وإلقائهم فيها ولكنهم نجوا منها ولذا كانوا جديرين بأن يحملوا لقب قديسين لكن سرعان ما دُبرت لهم مؤامرة أدت إلى قتلهم. أما الراهب الرابع فقد ألقى القبض عليه وخُير بين الدخول في الإسلام وبين القتل وحين رفض تم تمزيقه، ويرجح أن أودوريك هو الذي جمع أشلائه، ولمعرفة التفاصيل. راجع :-

ثم استكمل المبشر روايته عن رفات ما دعاهم بشهداء تانا Tana فذكر أنه بينما كان فى طريقه بحرًا إلى زيتون صعد عدد من العسكر الإمبراطورى إلى السفينة وراحوا يتفقدون جنباتها المختلفة بحثًا عن أى شيء مخالف للقواعد. ولهذا قام بإخفاء تلك الرفات لعلمه بأنهم يعتقدون فى أنه حينما توجد عظام بشرية على ظهر سفينة، فتكون نذير شر مستطير عليها. وذكر أنه بالرغم من إمكانية العثور على هذه الرفات فإن الله لم يمكنهم من رؤيتها، وعليه فقد استطاع الراهب الوصول سالمًا فبادر بدفن رفات الشهداء فى كاتدارئية المدينة[١] وبرغم غلبة السذاجة على هذه الرواية فإنها تعكس جانبًا من الضوابط المتبعة فى أحد موانى الصين، الأمر الذى يعطى الرواية أهميتها إذ أبرز أودوريك حقيقة وجود موظفين يعملون لصالح الإمبراطور، قاموا بالإشراف على السفن التى تقصد ميناء زيتون. ولكن الصورة لا تبدو واضحة حين رسمها لنا الراهب فى حين نجد ماركو بولو قد استرسل فى تغطية هذا الجانب إذ تناول الجمارك والضرائب والضوابط السائدة فى هذا المرفأ الحيوى بالحديث، كما تناول ابن بطوطة المعاصر ذات الأمر بدقة فنقل لنا بعض ما تعرف عليه من هذه الضوابط؛ فالميناء يخضع تحت إشراف موظف كبير لقبه «صاحب البحر»، له عديد من المساعدين، يسجلون أسماء ركاب كل سفينة فى قوائم تحفظ. «وإذا ما عاد الجنك [السفينة] إلى الصين صعدوا إليه أيضًا وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس، فإن فقدوا أحدًا مما قيدوه طلبوا صاحب الجنك به. فأما من يأتى ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك يحدث عليه، وإلا أخذ فيه. فإذا فرغوا من ذلك، أمروا صاحب المركب أن يملى عليهم تفصيلاً جميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها. ثم ينزل من فيه، ويجلس حفاظ الديوان [أى الموظفين] لمشاهدة ما عندهم، فإن عثروا على سلعة قد كُتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالاً للمخزن، وذلك نوع من الظلم»[٢] .

=Ibid, pp. 158 - 171, CF. Also, Marcellin de Civezza, Op. Cit, vol I, pp.244 - 251.

(١) Odorico, Da Pordenone., (ed.), Domenichelli, T., Loc. Cit.

(٢) Marco Polo, Op. Cit., pp. 254 - 255. =

وحقيقة فإن هذه الوظيفة كانت قد عرفت في الصين في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادى باسم "زى به شى" أى مراقب التجارة البحرية، ومن واجباته : تفتيش مشحونات السفن وجمع الضرائب[1] . ولعل العبارة والتفسير المذكور يساعدا على فهم أبعاد رواية أودوريك التى سيقت، وتوضح أن ما اتبعته السلطات من إجراءات فى أثناء تفتيش السفينة لم يكن المقصود منه البحث عن الرفات للتخلص منها، وإنما كان ذلك بمثابة تطبيق للنظم والقواعد المتبعة على ظهور السفن داخل الموانى واللافت للنظر هنا أن أودوريك لم يهتم كثيرًا بإيراد مثل تلك التفاصيل فى رحلته وكأنه أراد أن يؤكد على تغليب البعد الدينى.

وبعد أن فرغ أودوريك من مهمته الأساسية الأولى فى زيتون، وهى دفن رفات زملائه المبشرين فى الكاتدرائية، نجده يتبع أسلوبًا مخالفًا لما اتبعه فى سونستالاى حيث خرج للإقامة فى أحد الفنادق الصغرى فى زيتون وأخذ يصف الأشياء المحيطة بالفندق حيث حشرات الناموس والدواجن والخنازير والفلاحين أصحاب الشعر الأسود المشوب بالزرقة وله بريق، كما تعرف على الذين قاموا باستضافته، فوصفهم بأنهم ذوى وجوه مستديرة وحواجب مقوسة[2] . وفى تلك الظروف شرع المبشر الفرنسيسكانى فى استئناف عمله التبشيرى وسط هذا الخضم البشرى الوثنى بين أفراد الشعب الصينى الذى يحمل هذه الصفات.

وفى الواقع، لم تكن جهود أودوريك التبشيرية إلا امتدادًا للجهود التى بذلتها الإرساليات التبشيرية السابقة عليه بإشراف من جون دومون - كورفن؛ فمن المتفق

- ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٢.

(١) Chau Ju - Kua, On the Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Theirteenth Centuries, ed. and trans. from The Chinese and Annotated by Friedrich Hirth and W.W. Rockhill, Amsterdam 1966, p. 20.

ويضم المصدر مادة تفصيلية عن النشاط التجارى للموانى الصينية خاصة فى القرن الثالث عشر الميلادى زمن رحلة المدون.

(٢) Odorico Da Pordenone, (ed), Domenichelli, T., p. 179.

عليه أن هذا الرائد الفرنسيسكانى باشر مهامه التبشيرية فى الصين منذ عقود ثلاثة تقريبًا كمبعوث للبابوية التى حثت فى رسائلها خانات الصين على الدخول فى النصرانية، وحماية الرهبان الفرنسيسكان والدومينكان فى بلادهم ورعايتهم، والعمل على نشر الدين المسيحى بين رعاياها، الأمر الذى أضفى على هذا الاتصالات المهمة التى يقوم بها المبعوثون طابعًا دينيًا بحتًا[١]. وكان جون دومون - كورفن أول راهب كاثوليكى يدخل الصين حيث قام بالتبشير بين المسيحيين الشرقيين (النساطرة) من أرمن وجورجيين و لم يكن قد خول له ترسيم رجال الدين بالصين، ولذا راسل البابا كليمنت الخامس Clement V (١٣٠٥ - ١٣١٤م.) فى هذا الشأن، فاستصدر مراسيم بتقليده رئيسًا لأساقفة كامباليت ومنحه صلاحيات البطريرك فى مجمل الصين المغولية وأرسل سبعة رهبان مبشرين لمعاونته لم يصل منهم سوى ثلاثة عام ١٣١٣م. إذ قضى الآخرون نحبهم فى الطريق، وكان أول ما اهتم به هو تأسيس أسقفية فى مدينة زيتون[٢].

ويسلط أودوريك بعض الضوء على حركة التنصير فى زيتون، فكشف النقاب عن تشييد الكاتدرائية التى اتخذت أسقفية، وذكر أنه يرجع الفضل فى ذلك إلى إحدى النساء الأرمينيات التى أنفقت ثروة طائلة على إقامة المشروع هبة للكنيسة وكانت الكنيسة قد بلغت شهرة عريضة حتى وقف ابن بطوطة عليها طويلاً فى كتابه. ومن ناحية أخرى أشار أودوريك إلى المبشر الذى كان يدير الدعوة النصرانية قبله فى المدينة وهو الأخ بيريجران Fr. Pérégrin وفضلاً عن ذلك نوه المبشر إلى أبرز معاصريه الذين تولو العملية التبشرية فى زيتون وكانوا يقيمون بها بشكل دائم،ولكنه اكتفى بذكر اثنين منهم وهما : الأخ جون Fr. Jean و لم يمدنا بلقبه، وكذلك الراهب عمانويل دو مونتيكيلو Emmanuel de Monticulo الذى ما لبث أن ارتقى فى السلك الكهنوتى وغدا يدعى بالأخ فونتيرا دو سارزانا Fr. Ventura de

(١) Moule, A.C., Op. Cit, pp. 168 - 171.

(٢) Matrod, H., Op. Cit, pp. 113 - 114, Moule, A.C., Op. Cit, pp. 183 -191.

Sarezana[١]، والمهم أن هذه المعلومات تدفع إلى الاعتقاد فى أن أودوريك كان أحد الرهبان الذين دفع بهم مقدم جماعة الفرنسيسكان والبابا كليمنت الخامس إلى الصين بغرض دعم جهود جون دومون - كوفن وكانت مدينة الزيتون هى الساحة التى شهدت نشاطه التبشيرى المذكور، كما يبدو أنه تزعم فريق العمل الفرنسيسكانى هناك.

ومن الانجازات المهمة التى حققها أودوريك داخل زيتون تشييده دير يسع اثنين وعشرين راهبًا ويضم أربع غرف واصفًا صومعته بأن «بهاءها فاق أكثر الصوامع بهاءً فى بلدنا» ويقصد بها مقاطعة بوردنون فى إيطاليا. ثم أتبع ذلك بتشييد كنيسة ملحقة به[٢]. وقد ثبت تاريخيًا وجود هذا النشاط المعمارى إذ سجل الأخ جون دو ماريجنولى Fr. Jean de Marignolli الذى جاء إلى زيتون حوالى منتصف القرن الرابع عشر وجود ثلاث كنائس «فى غاية من الروعة تم تشييدها بشكل جيد فبدت للرائى فخمة، عظيمة الثراء... وكانت إحداها قد أقيمت فى منطقة تخص المسلمين، وكان ديرها يضم أبنية عديدة خاصة بالرهبان إضافة إلى عدد من المخازن التى يودع فيها التجار بضائعهم»[٣]. وهذه الانجازات لابد وأنها تطلبت مزيدًا من جهود المبشر، الأمر الذى جعل أحد الرهبان الفرنسيسكان المحدثين المهتمين بدراسة شخصية أودوريك يذكر أنه لم يكن مجرد نقطة ماء ضائعة فى خضم المجتمع الصينى، إذ غدا، وكأنه فى وطنه نظرًا لتحول هذا المجتمع إلى مجتمع فرنسيسكانى وأصبح أودوريك يمثل فى حد ذاته حلقة مهمة فى تاريخ الملحمة الفرنسيسكانية فى الصين[٤] ولا غرو فى أن

---

(١) Odorico Da Pordenone (ed), Domenichelli, T., p. 179.

ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٠١.

(٢) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichlli, T. Loc. Cit.

(٣) Marignolli, J., Account of his Mission, ed & trans. by Henry Yule : Cathey and the way Thither, London, 1913, Vol III, p. 229, Cf. Also, Matrod, H., Op. Cit., p.114, N. 41.

(٤) Wyngaert, Anastase van Den, O .F. M. : Jean de Mont - Corvin, O. F. premier évêque de Khanbaliq (Pe - King), 1247 - 1328, l'ille France, M., 1924, p p. 37 - 40 .

هذا التقييم لشخصية المبشر غلب عليه التعاطف الشديد معه لما لقيه من عناء في تلك البلاد الغريبة، والأمر المهم هنا أن هذا الراهب المحدث أعطى انطباعًا غير واقعي عن المجتمع في زيتون، الذي كان يتألف غالبيته المطلقة من عناصر غير مسيحية وهذا ما سيتبين لنا حجمه لاحقًا، وكل ما يمكن قوله في هذا الصدد أن أودوريك نجح على ما يبدو في تطوير مجتمع المسيحيين في زيتون وجعل من كنيستها وأبنيتها الدينية مؤسسة فرنسيسكانية تعنى بأمور الدعوة والاضطلاع بدور اجتماعي بين مسيحي جنوبي الصين.

واستكمالاً للدور الذي لعبه هذا المبشر في ميدان الدعوة بالتنصير، نجده قد تعرض لبعض الظروف التي أحاطت بتجربته في حقل العمل التبشيري هو وزملائه؛ فبداية زعم أنهم كانوا يرتادون المساجد لإلقاء المواعظ فيما بين المسلمين الذين كان من السهل التحدث بلغتهم[1]. وقبل الاسترسال في هذا الحديث، فإلى أي حدٍ يمكن تقبل هذا الزعم ؟، ففي حقيقة الأمر فمن الثابت أن كثيرًا من بلاد الصين عرفت الإسلام منذ عهد بعيد، إذ أقيمت مساجد كبرى منذ القرن الثامن الميلادي في مدن مثل كانتج - آن العاصمة القديمة وسونستالاي وغيرها من المدن، وقد ساعد الاحتكاك التجاري على انتشار الإسلام بشكل أعمق في الموانئ الساحلية أو المدن التجارية، وبعد تغلب المغول في النصف الأول من القرن الثالث عشر على الصين وجد الإسلام فرصة سانحة للتوغل في الولايات الداخلية[2]. وكان ممن كتبوا عن الصين من المسلمين في هذا العصر قد أكدوا على وجود مجتمعات إسلامية عريضة في المدن الكبرى، وكانت زيتون من أبرز المدن التي ضمت مثل هذه المجتمعات بدليل أن حاكمها في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي مسلم، يدعى بهاء الدين قندزي[3].

---

(1) Odorico Da Pordenone, (ed.) Domenichelli, T., P. 182.

(2) بدر الدين حي الصيني : المرجع السابق، ص ٢٢٨، راجع أيضًا : محمد محمود زيتون : الصين والعرب عبر التاريخ، القاهرة ١٩٦٤م. ص ٩٤ - ٩٥.

(3) الهمذاني : المصدر السابق، م ٢، جـ ٢، ص ٢٧٩، راجع أيضًا : ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٤ - ٦٣٥.

من ناحية أخرى، ناقشت بعض الدراسات المتخصصة الحديثة قضية تنصير المجتمعات الإسلامية بصفة عامة ومدى الدور الذى لعبته الهيئات الرهبانية الأوربية، وخلصت إلى أن الحركة التبشيرية الفرنسيسكانية لم يكن لها باع فى محاولة تنصير المجتمعات الإسلامية حتى تلك التى فى إيطاليا (أى فى عقر دارهم). وكانت القيادات الزمنية هى التى تقف وراء التصدى للمسلمين داخل هذه المجتمعات فى الغرب وليس رجال الدين، ومن ثم كان الفكر السائد عند الكنيسة هو محاولة عزل المسلمين وإبعادهم بدلاً من تنصيرهم[1]. وعليه يكون من الصعب قبول وجود نشاط تبشيرى فرنسيسكانى بين مسلمى الصين وداخل مساجدهم على الأقل فى تلك الفترة المبكرة على وجه الخصوص، نظرًا لمكانتهم الرفيعة وأعدادهم الكبيرة. ولذا تركز هذا النشاط بين صفوف الشعب الصينى المغولى الوثنى، وهذا بالفعل ما أكد عليه أودوريك سالفًا حين أشار إليهم بصفاتهم السلالية المعروفة.

ثم استأنف المبشر حديثه عن جهوده التبشيرية؛ فأكد على ما واجهه من صعوبة بالغة للوصول إلى عقول الأهالى من الوثنيين وأفئدتهم بسبب حاجز اللغة إذ أن شطر اللغة الصينية التى يتحدثون بها يعتمد على الغنة ولذا فهى بعيدة للغاية عن اللغة اللاتينية، وبالفعل فاللغة الصينية تتألف من ثلاثمائة وأربعين مقطعًا أحاديًا، ولكل نبرة صوت لمدلولات لغوية عديدة. وهناك أربع علامات صوتية باستخدامها يتم تمييز اللفظة المقصودة وترتيب المقاطع فى الكلمة الواحدة له أهميته فى تحديدها[2]. ولذا

---

(1) Kedar, Z. B., Crusade and Mission European Approaches toward the Muslims, U.S.A., New Jersey, 1988, pp. 145, 175.

(2) Turner, Ralph, Op. Cit., Vol. II, p. 828.

اللغة السائدة فى بلاد الصين زمن الرحلة تدعى تيو - يو - هان Tú - yü - hun أو لغة تيو-هان Tú - hun ينطق بها قوم يحملون الاسم ذاته والتى تأثرت بعدة لغات محلية أخرى وبحلول القرن السادس الميلادى أصبح لها التفوق عما دونها من لغات، خاصة فى مقاطعة كوكو- نور Ku Ku - Nor (شينغهاى Chinghai) وفى القرن العاشر الميلادى امتزجت تمامًا باللغة المغولية، ولمعرفة المزيد، راجع:

Wittfogel, K. A., and, Chia - Shêng, Fêng, Op. Cit., p. 105.

يضيف أودوريك قائلاً : «إن الأوربى الذى يتعامل باللغة الصينية مدة تبلغ عشرين عامًا لم يصل إلا لمرحلة التلعثم فى النطق بهـا، الأمر الـذى لا يمكنه مـن الوصـول إلى مستوى التعرف على معنى الكلمات والأفكار». ولما كان كبر سن الدعاة يحـول دون إتقان هذه اللغة، فكان لزامًا عليهم التعامل بـإحدى اللغتين المعروفتين لديهم (لعلهما الفارسية والعربية) وينقل صاحب هذه الرحلة التبشيرية عن لسان سابقه الأخ بيريجران فى هـذا الصـدد قولـه : «لـو قـدر لنـا أن نعبر بلغتهـم، لكنـا حققنـا المعجزات فـى التبشير»(١). وهذه العبارة توحى بأن الرجلين تقابلا بحيـث أفـاد أودوريـك مـن خبرة سابقه بيريجران فى الدعوة؛ فقد تنبه أودوريك إلى عائق عدم معرفة المبشـرين بلغـة أهـل البلاد، ولكن فى الواقع كانت هناك مشكلة إضافيـة مثلـت عائقًـا أمـام تلـك الحركـة، ذلك أن الدستور المغولى المعروف باسم (ياسا Yassa) أو الياساق-وهـو يحمـل العديـد من المسميات الأخرى-الذى كان جنكيز خان قد جمعه ووضعه حرصًا على جمع كلمة القبائل والسيطرة عليها وذلك فى عام ١٢٠٦م.قد حظر على المغولى التعصـب لمذهـب دينى(٢).وعلى أية حال أوضح أودوريك على هذا النحو بعض ملامح الأداء فى العمـل التبشيرى ومنها أن المبشرين تنقلوا من مكان إلى آخر لنشر الدعوة فـى زيتـون إنطلاقًـا من أبنيتهم الدينية هناك، كما بين أن اللغة التى استخدمها مسـلمو زيتـون تختلـف عـن اللغة الصينية وأنه كان على علم بها ولذا فلعلها تكون هى اللغة الفارسـية التـى كـانت سائدة بين التجار.وفضلاً عن ذلك نجـده وقـد وضـع يـده علـى بعـض المشـكلات التـى

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 83.

(٢) القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م.)، صبح الأعشى فـى صناعـة الإنشـا، القـاهرة ١٣٣٦ هـ، ج٤، ص٣١٠-٣١٢، السيد البـاز العرينـى: المرجـع السـابق، ص ٦٠-٦٢، فـؤاد عبـد المعطـى الصيـاد: المغـول فـى التـاريخ، بـيروت١٩٨٠م. ج١، ص ٣٣٨-٣٥٢ ، محمـود سـعيد عمـران: المغول وأوروبا، الإسكندرية ١٩٩٧م. ص٣٦-٣٧. وقد تناولت دراسة حديثـة عوامـل إضافيـة أخرى أعاقت انتشار الكاثوليكية فى الصين وغيرها من البلاد المغوليـة. راجـع ذلـك فـى: عـادل هلال : المرجع السـابق، ص ١٩٨-٢٠٢.

تواجه عملية التبشير فى الشرق، لعله أحاط البابوية بها عند عودته لتلافيها، ومنها الجهل بلغة الأهالى، وكبر سن المبشرين.

وجاءت سنوات العمل فى زيتون إلى نهايتها إذ كان على أودوريك أن يغادرها لاستئناف مهمته ولكن فى مكان آخر. فمن الواضح أن العملية التبشيرية فى العاصمة الإمبراطورية كامباليت قد هددتها الأخطار بسبب تقلص أعداد الأساقفة المعاونين لأكبرهم درجةً فى الصين وهو مطرانها جون دومون كورفن. وكان الوصول إلى كامباليت يتطلب من أودوريك المرور بأقاليم عديدة فى الصين والكثير من الطرق والأنهار والجسور والقنوات لكنه لم يقف عليها طويلاً بالوصف. وكانت أولى المدن التى مرَّ بها فى الإقليم الجنوبى تلك التى ذكرها بمسمى سيشو **sucho**[1] وهى على الأرجح فو- تشو Fou-Tcheu الواقعة فى منطقة فو-تشيان Fou-Tchian[2]، بيد أنه اكتفى بالإشارة إلى ضخامة حجمها فقدر مساحتها بثلاثين ميلاً* وثروتها الداجنة العظيمة، وقد ذكرت هذه المدينة فى المصادر الإسلامية بمسمى فوجو على أنها من المدن الهامة المنافسة لمدينة الزيتون، وأن بها مجتمعًا إسلاميًا.[3] وبعد مسيرة أودوريك ثمانية عشر يومًا ذكر أنه وصل إلى جبل عتيد اختلف الباحثون فى تحديده فذكر أحدهم أنه تيو-جيو-هنج Tu-Ju-Hingوسجل المبشر عن أهل المنطقة ظاهرتين: فنساؤهم المتزوجات يميزن أنفسهن بأن تضع كل منهن إناءً به بعض قرون البهائم دون غير المتزوجات، أما الظاهرة الثانية، فالأهالى يقومون بتصفيف شعرهم بطريقة غريبة[4] ،

---

(١) Odorico Da Pordenonne, (ed.), Domenichelli, T., pp. 179-180 .

(٢) Matrod,H., Op.Cit., p115.

* يلاحظ أن الميل الصينى يعادل ثلاثة أثمان الميل الإيطالى.

(٣) الهمذانى : المصدر السابق، م٢، ج٢، ص٢٧٩.

(٤) Odorico Da Pordenone, Loc. Cit

حدد الراهب مارسولان دو سيفيزا موقع الجبل المذكور بأنه يفصل بين إقليم كيانج-سى -

وما يتعلق بالظاهرة الأولى لا يمكن تفسيره إلا إذا تم الاستناد إلى ما ورد عن ماركو بولو الذى أشار إلى أن الرعاة كانوا يصنعون من القرون الكبيرة مغارف وأوعية يحفظون فيها أطعمتهم(١)، ومن ثم قد يكون حمل النساء لها رمزًا لدخولهن الحياة الزوجية.

وبعد مدة مماثلة قطعها أودوريك فى الطريق وصل إلى مدينة كبرى تحتضن نهرًا عظيمًا لم يذكر اسميهما، غير أن الراهب هنرى كورديه يرجح أنه يانج - تسى وهناك قابل أودوريك رجلاً قام باستضافته فى بيته الواقع عند رأس الجسر الذى كان يربط بين شطرى المدينة عبر النهر.(٢)

ومن الواضح أن علاقة أودوريك بمضيفه قد توطدت حتى أنه أقام معه فترة تمكن خلالها من اصطحابه فى رحلات للصيد، فقدم لنا صورة واضحة لفنون الصيد فى الصين فترة العصور الوسطى، ومما رواه أنهما توجها إلى النهر واستقلا مركبًا صغيرًا، وكان الرجل قد أحضر مجموعة من الطيور المدربة على الصيد. وتقوم الفكرة على أساس ربط عنق كل منها بعد حرمانها فترة كافية من الطعام بخيط لا يسمح لها بالتهام ما تلتقطه من أسماك، وبشكل تلقائى تقوم بوضع صيدها فى السلال الثلاثة الموضوعة فى بداية ومنتصف ومؤخرة المركب. وكان من المدهش أنه سرعان ما امتلأت السلال بالأسماك وحينئذ قام الرجل بحل الخيط وترك الطيور على أعنتها كى تلتقط ما يحلو لها من أسماك، وعندما يتم لها ما تريد تعود بشكل تلقائى أيضًا إلى القفص الذى انطلقت منه ويتم إغلاقه.(٣) وقد وردت إشارات فى المصادر المعاصرة

= Kiang-Si، وإقليم فو-كيان Fo-Kien بينما عرفه الراهب ماترود بأنه هو جبل نونشان Nanchan، أى جبل الجنوب. انظر:

Marcellin deCivezza, Op. Cit., vol I, p. 283, Matrod, H., Loc.Cit.

(١) Marco Polo. Op. Cit., p.66.

يضيف ذات المصدر فى هذا الصدد أن هذه القرون كانت لحيوانات برية وبخاصة الشياه ذات الحجم الكبير مقدرًا طول القرن بأنه قد يبلغ ثلاثة أو أربعة أشبار وأحيانًا ستة أشبار.

(٢) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 185.

(٣) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 180.

يفهم منها أن الطيور المستخدمة فى عملية الصيد تلك كانت من نوع السناقير والبزاة والصقور والنسور المدربة، وعادة ما كانت تستخدم عند ضفاف الأنهار[١] . والثابت أن هذه الطيور قد بلغت درجة عالية من إتقان أداء مهامها بدليل أنها كانت تقدم هدية حملها السفراء من قبل الخان المغولى إلى السلاطين وقد جُلبت إليه من بلاد الخطا[٢] حيث الصين الشمالية.

خاض أودوريك تجربة ثانية اكتفى بتحديد موقعها بأنه على بعد بضعة أيام من المكان السابق يعتقد البعض أنه عند ذات النهر يانج-تسى ولكن فى اتجاه أقرب إلى منبعه[٣] ، والتجربة في هذه المرة تعتمد على الصيد اليدوى، ذلك ان الصيادين كانوا يجهزون مركبهم بوعاء كبير به ماء ساخن وينتزعون ملابسهم تمامًا للغوص فى المياه الباردة وقد ربطوا حول الرقبة سلةً يُعتقد أنها بمثابة شبكة ليضعوا بها ما يتمكنوا صيده من أسماك، ثم يصعد الواحد منهم بعد فترة إلى المركب ليضع صيده ويغوص فى الماء الساخن، وتتم هذه العملية بالتناوب فيما بينهم بحيث يقضى كل منهم فترة قدَّرها أودوريك بثُمن الساعة[٤] ، وتسجل المراجع الحديثة هذه الظاهرة موضحةً أن فريق العمل كان فى العادة يضم أربعة صيادين يضعون الشباك حول الخصر، يغوص الواحد منهم لمدة حوالى نصف ساعة ثلاث مرات وكانت العملية تتم فى العادة خلال موسم انخفاض الحرارة، حينما تتجمد الطبقة العليا من المياه أى فى أواخر الخريف والشتاء. والجدير بالذكر أن بعض القبائل خاصة الشيتان Ch'i-Tan منها هى التى اهتمت بعمليات صيد الأسماك تلك، فى حين لم يظهر المغول اهتمامًا بهذه العمليات برغم شغف جنكيز خان بها منذ حوالى القرن[٥] وبذلك يتبين أن المبشر سجل بطريقة وافية

---

(١) Marco Polo, Op. Cit., p. 147

(٢) الهمذانى: المصدر السابق، م٢، ج٢، ص ٢٤٦.

(٣) Matrod, H., Op. Cit., p. 116-117.

(٤) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., Loc. Cit.

(٥) Wittfogel, K. A., and, Chia - shêng, Fêng, Op. Cit, p. 120.

بعضًا من أساليب الصيد لدى الصينيين مبرزًا ما وصلت إليه قريحة هذا الشعب من مستوى مرتفع فى القدرة على استغلال البيئة بالشكل الأمثل.

مدينـــة أهامـــزان :

وكانت المحطة التالية فى رحلة أودوريك هى مدينة أطلق عليها اسم **أهامزان** Ahamsane (١) ولعلها هى ذات المدينة التى وردت فى المصادر الإسلامية حاملة مسمى حمدان(٢) وكذلك خينكساى أو الخنسا(٣)، وقد أكد الباحثون أنها مدينة كينزاى Quinsai القديمة التى كان ماركو بولو قد زارها مرارًا وذكرها بهذا المسمى. وفى القرن الخامس عشر الميلادى، تغير اسمها وحتى وقتنا الحالى إلى هان تشو- فو Han - Tchéou-fou وتُنطق أيضًا هانج – تشو Hang - Tcheou وهى أكبر مدن الصين الجنوبية(٤)، وتقع على نهر يانج – تسى العظيم ومن الجلى أن أودوريك انبهر بجمال المدينة وضخامتها إذ ذكر عنها أنها «أفضل وأنبل وأضخم مدينة فى العالم أجمع»، وقد وصفها أهلها بأنها "المدينة السماوية"، ثم أوضح أنها «مقامة على أرض سهلية منخفضة مثل مدينة البندقية حيث تتخللها البحيرات والأنهار». ثم أورد اسم إحدى هذه البحيرات فدعاها سى – هو Si - hou (٥) وذكر عنها أنها أضفت طابعًا مميزًا على المدينة فظهرت وكأنها عبارة عن عديد من الجزر الصغيرة ربط فيما بينها التى

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.) Domenichelli, T., p. 181.

(٢) الإدريسى : المصدر السابق، ص ٥٧.

(٣) الهمذانى : المصدر السابق، م٢، جـ ٦، ص ٢٧٢، ٢٧٩، ٣٢٣؛ ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٩.

(٤) Marco Polo, Op. Cit, p. 231. cf. also, Marcellin deCivezza, Op. Cit, vol I, p. 284, Matrod, H., Op. Cit, p. 117.

(٥) اسمها يعنى : البحيرة الغربية لوقوعها فى الجانب الغربى من المدينة، وهى إن تكن غير ذات شأن من حيث الاتساع، إذ يبلغ قطرها : ثلاثة أو أربعة أميال فإنها شهيرة عند الرحالة الذين وصفوها بسبب جمال ما يحيط بها من مناظر والشفافية العجيبة لمياهها. راجع : ماركو بولو : المصدر السابق، الترجمة العربية، ص ٢٥٢، ج ٤.

عشر ألف جسرًا حجريًا عليها حراس، فشابهت مدينة البندقية أيضًا فى بهائها بل إنها تملك ضعف الجمال الذى فى العالم وحدها، أما عن حجمها فذكر أنها تُعد أضخم مدن العالم إذ بلغ محيطها مائة ميل. ومع ذلك فليس بها أى جزء خالٍ من السكان بل هناك مناطق بلغت فيها الكثافة السكانية أعلى معدل لها. ثم انتقل أودوريك فى وصفه للتحدث عن بوابات المدينة فأشار إلى أنها بلغت اثنتى عشر بوابة وعلى امتداد نحو ثمانية أميال من كل بوابة ينتشر العمران كضواحى فى شكل مدن تفوق الواحدة منها مدينة البندقية أو مدينة بادوا Padua فى حجمها وتحتوى المناطق المحيطة بالمدينة الرئيسية على شبكة متصلة من الطرق الجيدة حتى أن المسافر قد يسير مدة ستة أو سبعة أيام بدون أن يشعر بالمسافة التى قطعها نظرًا لأنه يمر بشكل مستمر وسط المدن والمنازل. وما لبث أن أنهى أودوريك هذا الوصف بقوله : «إننى لم أجرؤ على أن أكتب عنها [أهامزان] بهذا الشكل إلا عندما وجدت فى البندقية أناسًا عديدين قاموا بزيارة هذه المدينة من قبل»(١).

إن هذه الصورة الرائعة التى رسمها أودوريك لمدينة أهامزان لا تبدو واضحة ودقيقة إلا بمضاهاتها بأبرز ما أورده بعض معاصريه عنها؛ فمن السابقين عليه من أبدى انبهاره بعظمتها وفخامتها مشيرًا أيضًا إلى مسمى المدينة السماوية وإلى تفوقها على ما عداها من مدن العالم بما تمتعت به من امتياز وشهرة «فضلاً عن مباهجها الوفيرة التى قد تدفع ساكنها أن يظن فى أنه مقيم فى الفردوس» وحدد محيطها بمائة ميل ووصف ميادينها وشوارعها وقنواتها بشدة الاتساع وذهب إلى مدى أكبر فى وصف أبنية المدينة ودفاعاتها ونشاطها التجارى والصناعى ومشتملاتها الأخرى وضواحيها.(٢) ومن اللاحقين من أكد على كبر المدينة فعدها أيضًا أكبر مدن الأرض، فقدر طولها بمسيرة ثلاثة أيام ، واعتقد فى أنها تنقسم إلى ست مدن مزدحمة بالسكان لكل واحدة منها سور ويضمهم جميعًا سور واحد. وقد سكن المدينة الأولى حاكمها وكثير من الحراس،

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., Loc. Cit.

(٢) Marco Polo, Op. Cit., pp. 231- 239.

وفى الثانية سكن اليهود والنصارى وعبدة الشمس مع أميرهم الصينى، أما الثالثة فبها عدد كبير من المسلمين ومسجد جامع وزوايا وأسواق. وكانت الرابعة تضم دار الإمارة حيث الأمير الكبير وعبيده وخدامه إضافة إلى ميناء نهرى نشيط الحركة وبعض الصناعات، وهى أحسن المدن الست، وكانت الخامسة «يسكنها عامة الناس وأسواقها حسان وبها الحذاق بالصنائع..». أما المدينة السادسة فيسكنها الحرفيون، مثل : البحارة والصيادون والنجارون، فضلاً عن بعض فئات العسكر. ويتفق ذات المصدر مع أودوريك فى جانب مما أورده عن طرق المدينة، غير أن شهادته تشمل بلاد الصين بعامة إذ قال فيها، هى : «ءأمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافر، فإن الإنسان يسافر منفردًا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها»[1]. وبذلك تطرق المبشر ولو بطريقة غير شمولية إلى حقيقة ما نعمت به الطرق من أمن الذى كان يعم طريق الحرير إلى الصين وداخلها وفقًا لما عرف بفترة السلام المغولى Pax Mongolica التىعاصرها، إذ امتدت ما بين عامى ١٢٦٠-١٣٦٨م.

هكذا يبدو وصف أودوريك المعبر لمدينة أهامزان وقد شابَهُ بعض المبالغة وعدم وضوح الرؤيا أحيانًا، ولكن الصورة التى رسمها معاصروه لذات المدينة ربما تكون قد أوضحت بعض الأمور، فقد تعامل أودوريك فى وصفه للمدينة على أنها مدينة واحدة ولذا قدر عدد جسورها بهذا الرقم الضخم (اثنى عشر ألف جسرًا) فى حين أنها كانت تضم مدنًا أو ضواحى أخرى، بينما قدرها معاصر آخر بست مدن. ومن ناحية أخرى اتفق أودوريك مع معاصريه فى وصف حجم المدينة بأنها أكبر مدن العالم وفى التأكيد على حسنها واتساعها وكثرة قنواتها وأهمية مينائها، واتفق معهم كذلك على ما أحاط المسافرين على الطرق من أمن ويسر فى الحركة. وهذه الأمور مجتمعة تدفع إلى الاطمئنان إلى ما ساقه من معلومات. وبرغم أنه كان صادقًا ودقيقًا بصفة عامة فى تقديم وصفه، فإن مادته لم تكن كافية لتغطية بعض الجوانب فى حين انفرد

---

[1] ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦١٦،٦٣٢، ٦٣٩-٦٤٢.

باعطاء بعض المعلومات التى ضن معاصروه بها مثل الحديث عن الطرق والمسافات بين ضواحى المدينة وبواباتها.

وبعد التعرف على وصف مدينة أهامزان شرح أودوريك النظام الضرائبى الذى عرفته المدينة؛ إذ كانت تجتمع عشرة أو اثنتى عشرة أسرة فى مكان واحد للتحايل بغرض دفع ضريبة واحدة، وكان الحاكم يحصل مبلغًا يقدر بخمسة وثمانين تومانًا Tuman (من العملة المعروفة باسم باليس التى سيتعرض لها المبشر فى موضع لاحق)، أما حين تضاف المبالغ المقرر تحصيلها من المسلمين فتبلغ تسع وثمانون تومانًا. وهذه لفظة مغولية تطلق على فرقة عسكرية مكونة من عشرة آلاف رجل، ومن ثم تبلغ عوائد الضريبة الإجمالية ثمانمائة وتسعين ألفًا، هذا إضافة إلى ما يتم تحصيله من الأسر المسيحية بل ومن التجار وعابرى طرق المدينة. ثم تطرق المبشر بعد ذلك إلى الحديث عن وفرة الطعام فى المدينة من الأرز ولحم الخنزير والخبز إضافة إلى نوع من الخمور يعرف باسم بيجنى Bigni والذى يعد مشروب النبلاء، ويتم صنعه بتخمير الأرز.[1] وهذه المعلومة سجلتها المصادر الإسلامية قبل قرابة الخمسة قرون؛ إذ أشار أحدها إلى أن العديد من الصناعات فى الصين قامت على محصول الأرز مثل الخل والنبيذ،[2] وبذلك تضمنت رواية المبشر عن مدينة أهامزان معلومات اقتصادية مهمة شملت الضرائب وبعض المنتجات الغذائية إضافة إلى أنه أبرز المسلمين كشريحة يمكن تمييزها بين أهل المدينة.

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 180.

وعن لفظة تومان، راجع : فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق، ص ٣٦١.

(٢) سليمان السيرافى: (كتب عام ٢٣٦هـ./ ٨٥١م.) : سلسلة التواريخ، نشرة لا نجلس ١٨١١م، ج١، ص ٤. راجع أيضًا: بدر الدين حى الصينى : المرجع السابق، ص ٩٠، ١٢٩. ومما يذكر أن سليمان السيرافى سافر إلى الصين بصفته تاجرًا مرارًا عن طريق البحر، فجاء فى كتابه بمعارف لم يسبقه إليها أحد، وفى أغلب الأحوال كانت أقرب إلى الحقيقة. انظر نفس المرجع، ص ٤٦-٤٧. ولمعرفة المزيد راجع : نقولا زيادة : الرحالة العرب، القاهرة، ١٩٥٦م. ص ٤٤- ٤٦

ووفقًا لما ذكره صاحب هذه الإرسالية التبشيرية فإن أكثر شيء أسعده في مدينة أهامزان التقاؤه بفريق العمل التبشيرى هناك وهو يتألف من ثلاثة رهبان ينتمون في الأصل إلى دير الإخوة غير الراشدين في سونستالاى (كانتون)، وكانوا قد أحرزوا بعض النجاح في دعوتهم، والدليل على ذلك هذا الرجل الذى اكتسبوه إلى عقيدتهم إذ وصفه أودوريك بأنه رفيع الشأن بين قومه حيث قام باستضافته فترة مكوثه في أهامزان ونوه إلى أنه حاز محبة واحترام هذا الرجل له؛ إذ عادة ما كان يدعوه بلقب آتا Atha[1]. وبمراجعة المصادر للتعرف على مدلول هذا اللقب تبين أن «الشيوخ بالصين يعظمون تعظيمًا كثيرًا، ويسمى أحدهم آطا ومعناه الوالد»[2]. وهذه الإشارة تشير بطبيعة الحال إلى ما وصل إليه أودوريك من كبر في السن وشيخوخة جعلته جديرًا بحمل اللقب.

أما عن جهود أودوريك التبشيرية في أهامزان فقد اقترنت بملازمة تلك الشخصية الجديدة له، ففضلاً عن أنه استضافه فقد ذلل له مشكلة عدم إتقان لغة الأهالى نظرًا لاختلاف اللهجات، كما أمده بالمعلومات التى كان من المستحيل التعرف عليها والتى سوف تكون سببًا في الكشف عن بعض الجوانب الروحية بين أفراد المجتمع هناك؛ إذ روى المبشر أنه خرج في رفقة هذا الرجل وتجول في المنطقة الواقعة في غربى بحيرة سى-هو، وسجل ملاحظته بأنها تعج بالمعابد البوذية التى كان أشهرها معبد المعزل الروحى La Retraite Spirituelle المعروف باسم ثيبى Thebe حيث الصخرة التى جلبها فيضان النهر إليه وكان بداخلها كهف عُرف لدى الأهالى بكهف القِرَدَة، وهذا المسمى له دلالته لدى المعتقدين بالبوذية؛ إذ أنه يرمز إلى قصة ذلك الرجل الورع الذى اعتاد أن يقوم بإطلاق صفارته فتجتمع إليه جميع قردة المنطقة فيتولى إطعامها. وقد شاع أن بالكهف ممر سفلى يصل إلى الهند.[3]

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 182.

(٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦٤٠.

(٣) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 182.

وما لبث أن تطرق أودوريك إلى رواية أخرى تتلخص فى أنه حينما اصطحبه مضيفه إلى ذلك المعبد عرّفه بشيء آخرميز ذلك المكان ألا وهو ظاهرة استنساخ الأرواح اعتقد أودوريك فى أنها كانت أرواح للرهبان المسيحين المبجلين. وفى قصته أن المضيف قدمه إلى رجل آخر ذاكرًا أنه قَدِمَ إلى هذه البلاد من أجل سلامة روح الإمبراطور، وطلب منه أن يريه ألوانًا من أعاجيبه، وحينئذ تقدم الرجل ومعه إنائين من الفضة مملوئين بالطعام، وقرع آلة خشبية قد تكون الطبلة بالعصا فتقاطرت عليه أعدادٌ كبيرة من الحيوانات بلغت حوالى الثلاثة آلاف كان معظمها من القرود كما كانت تشبه الآدميين، وعندما قام الرجل بتقديم الطعام وقرع آلته مرة أخرى رتبوا أنفسهم فى نظام حسب نبالة أصولهم التى كانوا عليها فى الحياة الدنيا. وقد رفض الإجابة على أسئلة أودوريك والتحاور معه فى هذا الشأن، فكان ذلك دليله على أن هذا الشعب ليس لديه استعداد لاطلاع الغرباء على أسرارهم، ثم ختم حديثه عن أهامزان قائلاً: «إذا أراد شخص الكتابة عن خوارق هذه المدينة لتطلب منه تدوين كتاب ضخم»[1].

لا شك أن العبارات السالفة انطوت على معلومات مهمة يمكن استقراؤها، فهى تأكد على اختلاف اللهجات وتعددها فى المجتمع الصينى، وهذا أمر طبيعى لاتساع رقعة البلاد وتعدد الأجناس. وكان الإصطخرى سباقًا فى تسجيل هذه الملاحظة فى القرن العاشر الميلادى بقوله: «ولمملكة الصين ألسنة مختلفة»[2]. أما ماركو بولو القريب زمنيًا من فترة هذه الدراسة فيؤكد أيضًا هذه الحقيقة حين أشار إلى أن إحدى الولايات كانت تتحدث لغة عامة واحدة وتسودها طريقة كتابة مشتركة واحدة موضحًا أنه يوجد اختلاف فى اللهجات بمختلف أجزاء البلاد يشبه ذلك الاختلاف الواقع بين اللهجة الجنوية والميلانية والفلورنسية ولهجات المقاطعات الإيطالية الأخرى التى يمكن لسكانها التفاهم فيما بينهم وإن كان لكل لغة الحديث

---

(١) Odorico Da Pordenone,Loc.Cit.

(٢) الإصطخرى: المصدر السابق، ص ١٠.

الخاصة بها.[1]

ومن ناحية أخرى فبرغم ما قد يحيط رواية أودوريك فيما يتعلق بالنواحى العقائدية لدى البوذيين من شعور القارئ بتغلب الخوارق عليها إلا أنها تنطوى على عقيدة مرتبطة بالتراث القديم، فقد ورد لدى ماركو بولو حين حديثه عن ديانة هذا الشعب أنهم يعتقدون فى أن الروح خالدةفـإذا ما توفى شخص فسرعان ما تدخل روحه جسمًا آخرًا، وأنه تبعًا لمسلك الفضيلة أو الشر الذى اتبعه فى حياته ستكون حالته فى المستقبل نحو الأفضل أو الأسوأ؛ فإذا كان الرجل فقيرًا وحسنت سيرته تعاد ولادته فى بداية جديدة من رحم سيدة كريمة ويصبح هو نفسه سيدًا كريمًا، وفى مرحلة ثانية يولد من رحم سيدة نبيلة ويصبح نبيلاً، وهكذا ترتقى مرتبته حتى يتحد والإله. أما على العكس فإذا كان فى حياته ابنًا لسيد كريم وساء سلوكه فينحط به الأمر بأن يبعث فلاحًا ويتضاءل قدره ليصل به الأمر بأن يصبح كلبًا[2]. وفى الواقع فهذه العقيدة ما هى إلا مذهب التناسخ الهندوسى الذى دخل الصين مع عقيدة بوذا التى انتشرت بين شعوبها بداية من القرن الرابع الميلادى[3]. وكان الرحالة المسلمون قد سجلوا انتشار هذه العقيدة فى الصين بدليل أن كانت «لهم بيوت للعبادات»[4] وتشهد سلسلة المعابد البوذية الكبرى التى شيدت بداية من القرن العاشر الميلادى على أن البوذية كانت لها الصدارة بين الأهالى.[5] والجدير بالذكر أن هذا الفكر لا يزال ماثلاً فى العقل والوجدان، وقد برهن الصينيون على ذلك إذ اهتموا بتشييد معبد فخم أسفل معبد المعزل الروحى يضم رسومات ضخمة للجن والآلهة السفلية ، وذلك فى العشرينات من القرن الحالى، وقد حرص المعمارى المنفذ على الالتزام بالطراز الصينى

---

(١) Marco Polo, Op. Cit., p. 255.

(٢) Marco Polo, Op. Cit., p. 175.

(٣) Wittfogel,K.A., and Chia-Shêng, Fêng, Op.Cit., p.291.

(٤) القزوينى : المصدر السابق، ص ٥٣.

(٥) -Wittfogel, K.A.,and Chia-Shêng, Fêng, Op.Cit., p.p.291, 297-303

القديم فى البناء فقام بطلاء الأعمدة باللون الأحمر. ومما يجدر ذكره أن هناك ممر سفلى يربط هذا المعبد بمعبد بامبو السماوى Bambou Céleste عادةً ما يكون مكتظًا بالمتسولين من العميان[1]. وعليه نجد تفسيرًا لوجود سرداب نقل أودوريك عن أهل الصين أنه يمتد إلى الهند.

وها هو المبشر الفرنسيسكانى يستأنف إمداده لنا بفيض مادته الحضارية عن المجتمع الصينى فى العقود الأولى من القرن الرابع عشر الميلادى، وفى هذا الموضع ينقل لنا رؤيته لقصر امتلكه أحد الأثرياء، و لم يشر إلى موقع هذا القصر تحديدًا مكتفيًا بأنه فى مكان قريب من أهامزان (هانج-تشو) أى فى الصين الجنوبية. وأول ما تعرض له وصفه للحياة اليومية لهذا الثرى إذ كانت تقوم على خدمته خمسون فتاة، رتبن بحيث يقدمن له الطعام فى وجباته زمرًا؛ وذلك بأن تتقدم مجموعة تتألف من خمس منهن وقد حملن الأطباق إلى المائدة وتستبدلن بخمس أخريات، وسرعان ما تقوم المجموعة الأولى بإطعامه فى فمه فى جو مفعم بالغناء. ثم تأتى المجموعة الثانية وهى تحمل أطباقًا أخرى لإطعامه وسط نوعية مختلفة من الأغانى، وهكذا.. وهذه المشاهد تتكرر بشكل يومى مع تغيير فى الألحان والأغانى. ويقدر أودوريك ثروة هذا الرجل بما يعادل ثلاثمائة ألف جوال من الأرز، يبلغ وزن الواحد منها ما لم يقدر على حمله إلا حمار قوى. ثم انتقل إلى وصف القصر بأنه يبلغ ميلين طولاً، أما أرضيته فنصف بلاطها من ذهب والنصف الآخر من فضة. وفى وسط ساحة القصر يوجد تمثال صنع كذلك من ذهب وفضة، وهو يشبه التماثيل التى فى الأديرة[2]. وهكذا كان لمحصول الأرز مكانته بين الصينيين؛ فمنذ القرن التاسع الميلادى كان الأرز يعد الغذاء الرئيسى لعموم الشعب[3]. ولا شك أن هذه الذكريات التى ظلت عالقة فى ذهن المبشر الفرنسيسكانى تعكس جانبًا مما كانت عليه الطبقة الغنية من ثراء، كما تؤكد على أهمية محصول الأرز بالنسبة

---

(١) Mabel Craf Deering, The National Geographic Magazine, Washington, Juin, 1927, p. 647.

(٢) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 182.

(٣) سليمان السيرافى: المصدر السابق، ج١، ص ٤.

للصينيين منذ العصور الوسطى وحتى الآن كما هو معروف، حتى أنه أصبح يستخدم لتقييم ثروة البعض.

مدينـــة شيلفـــو :

وبعد الفترة التى مكثها هذا الرائد الفرنسيسكانى فى أهامزان قطع رحلة تبلغ ستة أيام سيرًا فبلغ مدينة دعاها **شيلفو** Chilefo[1]، ذكر بعض الرهبان المهتمين بدراسة حياة أودوريك أنه من الصعب إقرانها بأحد المسميات الحديثة لكنها ربما تكون هى مدينة كوى-سونج-فو Cui-Song-Feu حاليًا[2] وكان ماركو بولو قد تناولها فى رحلاته مطلقًا عليها نانغين Nanghin أو نانكين Nan King فى حين وردت عند رشيد الدين الهمذانى برسمين متشابهين، نمكين، نمكينك[3]. وقد تحدث أودوريك عنها فوصفها بأنها مدينة ضخمة تبلغ مساحتها أربعين ميلاً، وبها عدد من الجسور يقدر بثلاثمائة وستين جسرًا من أجمل جسور العالم. والمدينة محاطة بالأسوار وكانت المقر الأول للملك جنوب الصين فى مملكة مانزى. وبمجرد الخروج من المدينة، وصل أودوريك إلى نهر ضخم ذكره باسم نهر شناى Chanay أو تناى Tanay، وهذه أول إشارة صريحة إلى النهر المعروف حاليًا باسم يانج - تسى، وهناك لفتت أنظاره المراعى الواسعة للأبقار والأغنام[4]. وجاء فى وصف الهمذانى لها أن محيطها بلغ أربعين فرسخًا كما أن لها ثلاثة أبراج ويجرى فى وسطها نهر عظيم. وفى موضع آخر يذكر المؤرخ ذاته أن ملوك الخطا اتخذوا من المدينة عاصمة لملكهم قديمًا[5]. وهكذا يمكن أن نخلص من هذين الوصفين بأن المدينة كانت من المدن المهمة حتى زمن الإرسالية، كما

---

(1) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 183.

(2) Marcellin deCivezza, Op. Cit., vol. I, p. 286; Matrod,H., Op.Cit., p. 125.

(3) Marco Polo, Op. Cit., p. 224.

الهمذانى: المصدر السابق، م٢، ج٢، ص٣٨، ٢٤٥، ٢٧٩.

(4) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 183; Marcellin de Civezza, Op.Cit., vol I, p. 286.

(5) الهمذانى: المصدر السابق، م٢، ج٢، ص ٣٨، ٢٧٩.

أن وجود الأبراج الثلاثة يعد دليلاً على أنها كانت محاطة بالأسوار مصدقة لما أورده أودوريك فى هذا الصدد. أما التباين فى أنها كانت عاصمة لكل من مملكة مانزى ومملكة الخطا فيمكن إقرار المعلومة التى أتى بها كل من المبشر الفرنسيسكانى والمؤرخ المسلم نظرًا لامتداد المدينة على ضفتى النهر الفاصل بين هاتين المملكتين القديمتين.

مدينة يمزاى :

وكان نهر اليانج – تسى قد أتاح أمام أودوريك فرصة الرحيل من مدينة شيلفو ليخترق أرضًا سكنتها سلالة قزمية (المقصود هضبة منغوليا) حيث استلهم الكثير من الخرافات والأساطير فى الحديث عن تسلقهم للأشجار وبعض عاداتهم الغريبة، ثم وصل مدينة وردت عنده باسم **يمزاى** Iamzai[١] وقد اعتقد أحد الباحثين من الرهبان فى أنها هى ذات المدينة التى ذُكرت عند ماركو بولو تحت اسم آخر هو ينجوى Yangui التى تدعى حاليًا يانج–تشو Yang-Tcheu التى تولى حكمها من قبل قوبيلاى خان مدة ثلاث سنوات. وفى الواقع فمدينة يمزاى هى ذاتها تلك المدينة التى ذكرها ماركو بولو بمسمى شان–شيان–فو Chan-Chian-Fu وزارها فى أثناء رحلته[٢]. وهنا يتبين من خلال تشابه وصفه لها مع وصف أودوريك.

ومما سجله أودوريك عن مدينة يمزاى أنها من المدن النبيلة، مقدرًا ما تضمه من سكان بما يتراوح بين ثمانية وأربعين تومانًا وثمانية وخمسين تومانًا، وعليه يقدر سكانها بنحو نصف المليون نسمة. ثم أضاف أن دخل حاكم هذه المدينة من انتاج الملح قد يصل نحو الخمسة ملايين باليس Balis وهى عملة ورقية تشبه الحرير تعادل واحد ونصف فلورين Florin، غير أنه كان يكتفى بدخل يقدر بمليونى باليس فقط

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 184.

حدد الراهب هنرى ماترو صفة سكان المدينة بأنهم من الأقزام، مضيفًا أن الخرافات والأساطير ربما يكون أودوريك قد استلهمها من روايات كتاب ألف ليلة وليلة. ولمعرفة المزيد راجع

Matrod, H., Op. Cit., p. 173, N. 49.

(٢) Marco Polo, Op. Cit., p. 223; Matrod,H., Op. Cit., p. 126.

كنوع من التخفيف عن كاهل الأهالى[١]. وما من شك فى أن هذه الرواية صحيحة إلى حد كبير؛ إذ استخدم كاتبها لغة الأرقام، ويلاحظ عدم معرفة العصر لرقم المليون. ومما يسجل له أيضًا أنه قدم الوسيلة التى يمكن بها تقدير قيمة السلع من خلال موازنته بين قيمة عملة الباليس وعملة الفلورين الذهبية التى اتخذتها فلورنسا الإيطالية فى عام ١٢٥٢م. عملة لها تحت اسم Ducati gigliati ثم عرفت بعد ذلك باسم فلورن.[٢]

أما عن عملة الباليس الورقية التى أشار إليها أودوريك، فالثابت أن الصين عرفت أوراق النقد الحكومية حوالى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى قبل أن تُعرف فى أى بلد آخر فى العالم[٣]. وإلى جانب ذلك ظل الصينيون يستخدمون العملات الذهبية والفضية فى كثير من الأقاليم، ولكن النقود الورقية انتشر استخدامها بعد الغزو المغولى فى كثير من البلاد حين قام أوكيتاى Ogedei (١٢٢٩-١٢٤١م.) بإنشاء دار لسك النقود الورقية فى كامباليت أسوة بالدور القائمة فى بعض المدن الأخرى[٤]. وهذه الظاهرة الحضارية كانت قد شدت انتباه ماركو بولو إليها فسجل فى أكثر من موضع بعض الجهات التى سادها التعامل بالعملات الورقية، وكان من أبرزها مدينة أهامزان والمناطق الواقعة بالقرب منها[٥]. وانتقل استخدام العملات

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 184.

(٢) ظهرت عملة الفلورين حاملة علامة زهرة الزنبق الفلورنسية تمييزًا لها عن العملة القديمة. انظر: عزيز سوريال عطية: الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، مراجعة أحمد خاكى، ط٢، القاهرة ١٩٩٠م، ص ١٧٦-١٧٧.

(٣) محمد زكى شافعى: مقدمة فى النقود والبنوك، الطبعة السابعة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٤٦، راجع أيضًا : فؤاد عبد المعطى الصياد : الشرق الإسلامى فى عهد الأيلخانيين، أسرة هولاكو خان، الدوحة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.، ص ٢١١-٢١٤.

(٤) Wittfogel,K.A., and Chia-Shêng, Fêng, Op.Cit., p. 664.

(٥) Marco Polo, Op. Cit., pp. 159-161.

ولحسن الحظ عرفنا ماركو بولو بطريقة صناعتها، إذ كان الخان يأمر بنزع لحاء أشجار التوت،=

الورقية فى بلاد مغولية أخرى حيث بلاد فارس بموسوم صدر فى سبتمبر ١٢٩٤م./ جمادى الآخرة ٦٩٣هـ. يقضى بالتعامل بعملة ورقية تدعى "الجاو"[١]، وأدرك ابن بطوطة المعاصر لأودوريك أن بيع وشراء أهل الصين كان يتم باستخدام قطع كاغذ (ورق) «كل قطعة منها بقدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان، وتسمى الخمس والعشرين قطعة منها بالشت»[٢]. وهكذا يتفق الرحالة المغربى مع أودوريك فيما ذكره تقريبًا وبدى التقارب بينهما فى تسمية العملة الورقية، إلا أن أودوريك لم يكن أول من سجل هذه الظاهرة عن بلاد الصين، بينما يعتبر أول الغربيين الذين ذكروا اسم هذه العملة المتداولة هناك.

وإضافة إلى تلك المعلومات المدققة يضيف المبشر تفصيلات أخرى، إذ تطرق إلى ظاهرة وجود ضيافات (نُزل) فخمة تقدم أطعمة أفضل من تلك التى تقدم فى منازل الأهالى إلى الحد الذى يفخر معه المتردد عليها أمام ضيوفه. وعلى المضيف أن يحدد نوعية الطعام وعدد الذين سيضمهم الجمع ودفع التكاليف مسبقًا ليتم تجهيز اللازم. كذلك شاهد أودوريك عددًا كبيرًا من السفن[٣] التى تجوب مياه نهر

= وتؤخذ منها القشرة الداخلية الرقيقة التى تقع بين اليابس وخشب الشجرة ثم تنقع هذه القشرة وتدق فى هاون حتى تتحول إلى عجينة يصنع منها الورق الذى يماثل فى مادته الورق المصنوع من القطن، وبعد ما يصبح الورق معدًا للاستعمال يتم قطعه إلى أحجام مختلفة شبه مربعة، وكان لكل حجم قيمة ثابتة لعملة أخرى أجنبية وتعطى هذه العملة الورقية شرعيتها ببعض الأشكال والرسوم ويتولى بعض الموظفين المختصين وضع أسمائهم وأختامهم على هذه العمله، فإذا صدرت هذه العملة على الطريقة السابقة يتولى كبير الموظفين المفروض من الخان الأعظم ختمها بالخاتم الملكى الموجود فى حيازته. وعلى هذه الصورة تكون العملة الورقية أصبحت معدة للتداول. وكان يعد تزوير هذه العملة جريمة عقوبتها الإعدام.

[١] الهمذانى: جامع التواريخ، تاريخ هولاكو، مقدمة كاترمير، القاهرة، ١٩٦٠م، م٢، ج١، ص ١٢٣.

[٢] ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦٣٠-٦٣١. وجدير بالذكر أن الرحالة أورد الكلمة برسم كاغد بينما سجلتها المعاجم كما هو مبين أعلى

[٣] Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 184.

اليانج- تسى.

بيد أن أهم ما لفت نظر المبشر فى يمزاى، تلك الكنائس النسطورية الثلاث إضافة إلى دير فرنسيسكانى للرهبان غير الراشدين الذى كان يستخدم قاعدةً للتبشير فى المدينة، كذلك فالدير يعد آخر مركز لهذه الطائفة لمن يأتى من الجنوب قاصدًا العاصمة كامباليت[1] . وقد ورد عند ماركو بولو أن المدينة كان يحكمها رجل نسطورى المذهب، وكان هذا الأمر قد فسر لديه إقامة الكنائس الثلاث المذكورة على المذهب ذاته، وحدد تاريخ تشييدها بعام ١٢٧٨م.[2] . وبالتالى فالدير يُعد إضافةً على تلك الأبنية.

وعلى كلٍ فقد استدل أحد الباحثين الرهبان على ما تقدم بأن الولايات الصينية الشمالية "كانت مكتظة بالأديرة الفرنسيسكانية بحيث أشعت بنورها لتضيئ جميع أرجاء الصين. ولذا كان المبشرون سعداء بما أنجزوه فى مهمتهم فى الدعوة[3] . وفى الواقع تكاد المصادر المعاصرة والمراجع تجمع على أن الديانات الأخرى عدا العقيدة البوذية لم يكن لها وضع يذكر فى منطقة شمالى الصين[4] ، وعليه، لا نجد فيما ذكره أودوريك -وماركو بولو من قبله- من أبنية مسيحية ما يكفى ليبرهن هذا الباحث على كثرتها وانتشارها على هذا النحو الذى صوره بشكل مبالغ فيه، خاصة وأنه قصر ذلك على معتنقى العقيدة الكاثوليكية الفرنسيسكانية.

وهكذا تعددت الإشارات ذات الأهمية التى خص بها أودوريك مدينة يمزاى؛ إذ أعطى تقديرًا لعدد سكان المدينة، الأمر الذى لم نلحظه حين حديثه عن المدن الأخرى فى الصين. كما أبرز أهمية صناعة الملح وإلى أى حد كان انتاجه يعود بهذا الدخل الكبير على صاحبها. ونظرًا لارتباط شخص الحاكم بهذه الثروة الطائلة فهذا

---

(١) Ibid, Loc. Cit.

(٢) Marco Polo, Op. Cit., pp. 228 - 229.

(٣) Marcellin deCivezza, Op. Cit., vol I, p. 286.

(٤) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦٣٢، ٦٤٤؛ لويس شيخو اليسوعى: المرجع السابق، ص ٧٥٦.

يعطينا انطباعًا عن الوضع السياسى فى البلاد، حيث ظهرت الطبقة الارستقراطية على أنها الطبقة الحاكمة من العنصر المغولى. ومن ناحية أخرى كان أودوريك واضحًا حين حدد قيمة عملة الباليس الورقية. غير أنه تصور خطأ أن المدينة تحتوى على ضيافات أو نزل تستقبل الزوار وضيوفهم، وفى حقيقة الأمر ما كانت هذه إلا مطاعم تجارية، ويبدو أنه لم يكن فى إيطاليا مطاعم بهذا الشكل، ولذا لم يتعرف على طبيعتها. وأخيرًا تشير كثرة السفن المارة فى النهر إلى قيام المدينة بدور تجارى ما. أما كنائسها فتعد دليلاً على أنها كانت أحد مراكز التبشير الكاثوليكى.

المدن على الطريق إلى حاضرة المغول فى الصين:

وبعد أن غادر أودوريك مدينة يمزاى شق طريقه تجاه منبع نهر يانجتسى حيث الغرب، ولمسافة قدّرها بعشرة أميال دخل مدينة أطلق عليها اسم **مونزيو** Menzu التى لم يستدل على ما يطابقها من مسميات حديثة. وكان كل ما ذكره عنها أن ميناءها يحتوى على أفضل السفن بل وأكثر السفن عددًا التى يمكن أن يضمها ميناء فى العالم، وكل الحاويات كما رآها بيضاء مثل الثلج إذ تغطى بطلاء أبيض، أما السفن فعلى متنها يوجد صالات ومطاعم وعدد من وسائل الراحة الأخرى تم تنسيقها بشكل مبهج للغاية حتى أنه لا يوجد له مثيل فى أى مكان آخر(١). وهذا الوصف للمدينة يوحى بأنها كانت من المدن الضخمة والمهمة فى زمن الرحلة، وأنها كانت من الموانى الرئيسية على نهر يانج-تسى الكبير.

وفى المرحلة التالية من الرحلة وصل المبشر إلى مدينة أخرى بلغها بعد مسيرة ثمانية أيام ذكرها باسم **لونكوى** Lencui لم يذكر عنها سوى أنها مدينة عظيمة المساحة، وهى تطل على نهر قاراموران Caramoran الكبير(٢) الشهير باسم هوانج-هو Hoang-Ho أى النهر الأصفر باللغة الصينية والنهر الأسود بالمغولية ومنبعه من التبت وكشمير، ولحسن الحظ ورد ذكر المدينة من قبل عند ماركو بولو الذى دعاها

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,pp. 184,185

(٢) Ibid, Loc. Cit.

لينحوى Lingui. وموقع المدينة، وكذلك اسمها يوحيان بأنها مدينة لينج-تشينج Ling-Tching حاليًا فى مقاطعة شان-تونج Chan-Tong. ولعل أبرز ما أفادنا به هذا التاجر المرتحل عن المدينة بخاصة والمنطقة بعامة أنهما نشطتا فى مجال التجارة بفضل الحركة الملاحية فى هذا النهر الواسع(١). ومن ثم يتبين أن الاتجاه الدينى لدى أودوريك يغلب عليه أحيانًا بالقدر الذى جعله لا يهتم بالوقوف عند الحديث عن الاتجاهات الأخرى لدى الشعوب التى جاب بلادها من تجارة وزراعة وصناعة وباقى الأنشطة. فى حين أن ماركو بولو لم تفوته تلك الوقفات فراح يسترسل فى وصفها بصفته تاجرًا.

ثم سلك المبشر الفرنسيسكانى طريقه عبر نهر قاراموران نحو المصب أى فى اتجاه الشرق، واستغرقت رحلته بضعة أيام حتى بلغ مدينة دعاها **سنزيماتو** Sunzumato، التى ذكرها ماركو بولو باسم سنجوى ماتو Singui-Matu أما التسمية الحديثة لها فهى لين-تسين-تشو Lin-Tsin-Cheu وكان أودوريك قد سجل عنها أنها تضم سوقًا رائجة اشتهرت بالتخصص فى تجارة الحرير ومنتجاته(٢). وكان العرب قد عرفوا وجود هذه الصناعة فى بلاد الصين منذ أمد فيقول الإدريسى: «بها طور [أى بلاد] كثيرة مشهورة، ومعمل الحرير الصينى الرفيع القسمة، المحكم الصنعة الذى لا يقارن به غيره..» ولذا اشتهرت ممالكها القديمة بانفرادها بصناعة الحرير وتصديره إلى سائر العالم، وكان أهلها أكثر الناس لبسًا للحرير(٣). أما ماركو بولو فقد سجل عنها قوله: «هى مدينة فخمة وضخمة وجميلة، غنية بما فيها من بضائع وتجارة وصناعات، وجميع سكانها من الوثنيين، ويتبعون الخان الأعظم ويستخدمون

---

(١) Marco Polo, Op. Cit., pp. 216-217.

(٢) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,p. 185.

(٣) الإدريسى: المصدر السابق، ص ١٦٦؛ بدر الدين حى الصينى: المرجع السابق، ص ٩٠، يضيف ابن بطوطة عن الحرير قوله: « والحرير عندهم كثير جدًا، لأن الدود يتعلق بالثمار ويأكل منها، فلا يحتاج إلى كثير من المؤنة، ولذلك كثر، وهو لباس الفقراء والمساكين بها، ولولا التجار لما كانت له قيمة، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير.» انظر: رحلة ابن بطوطة، ص٦٣٠.

العملة الورقية.» وهى تطل على نهر بلغت أعداد السفن فيه من الكثرة ما يجعلها بعيدة عن التصديق[1]. ويمكن تحديد هذا النهر بأنه نهر اللوين Louin البالغ النشاط فى حركة النقل التجارى، الأمر الذى جعلها مدينة صناعية تجارية كبرى، فتأهلت لكى تلعب دورًا اقتصاديًا نشطًا.

أما الأمر الآخر الذى شد انتباه أودوريك فى مدينة سنزيماتو فهو يمس النواحى الجغرافية، حيث لاحظ ارتفاع كثافة السكان الهائلة بها إلى الحد الذى جعله يقول: «إن عدد السكان بالمدينة لم أر له مثيلاً فى أى مدينة أخرى مررت بها، فتساءلت من أين أتت كل تلك الجحافل البشرية ؟، فجاءت الإجابة بأن نقاء الجو والمقومات الطبيعية للمدينة من الجودة بمكان جعلت الأهالى لا يموتون إلا بمرض الشيخوخة، وما دون ذلك فهم قلة». غير أن أحد التجار المرتحلين المسلمين سجل الملاحظة ذاتها قبل ذلك بحوالى خمسة قرون، إذ قال: «بلاد الصين أنزه وأحسن، وأصح وأقل أمراضًا وأطيب هواءً، لا يكاد يرى بها أعمى، ولا أعور ولا من به عاهة» كما لاحظ القزوينى الظاهرة ذاتها فقال عن إحدى جهات الصين «لا يرى بها ذو عاهة من صحة هوائها وعذوبة مائها وطيب تربتها.... وأقلها أمراضًا»[2]. حين مقارنتها بجهات أخرى وهكذا أطلق هذا الزائر حكمه على مجمل الصين فى الوقت الذى خص أودوريك مدينة سنزيماتو بملاحظته.

على أية حال يبدو أن الوقت لم يمهل المبشر أودوريك كى ينجز نجاحًا ما فى هذه المدينة سنزيماتو فى مجال التبشير؛ فخرج منها بلا نصير إذ اعتدنا منه أنه فى حالة إحراز أى نجاح فى الدعوة أن يقوم بتسجيل ذلك والإشارة إلى الأبنية المسيحية أو الرهبان المبشرين، ولما كان سابقه ماركو بولو فى زيارة المنطقة قد قطع بعدم وجود

---

(١) Marco Polo, Op. Cit., pp. 215-216.

ورد فى جامع التواريخ أن أهل الصين كانوا «يسمون الموانى الساحلية ماتو» ومن ثم فحينما تضاف هذه اللفظة على الموانى النهرية فإنها تشير إلى كونها مكان تجارى يقيم فيه التجار للراحة وتلجأ إليه السفن وتجبى فيه رسوم الخان. انظر: الهمذانى: المصدر السابق، م٢، ج٢، ص ٢٧٥.

(٢) سليمان السيرافى: المصدر السابق، ج١، ص ٥٨؛ القزوينى : المصدر السابق، ص ٥٠.

مسيحيين نساطرة أو غيرهم فيبدو أن ذلك كان عائقًا أمام الدعوة الفرنسيسكانية بصفتها غربية تمامًا على فكر هذا المجتمع البشرى.

مدينة كامباليت (بكين) :

كانت المحطة الأخيرة لصاحب هذه الإرسالية فى الصين هى مدينة **بكين** التى ذكرها بمسمى **كامباليت** Cambalet التى عجت وقت ارتحاله إليها بالمتناقضات؛ إذ كان الجزء الجنوبى من المدينة وهو ما يعتقد فى أنه أول ما رآه أودوريك بها عبارة عن ساحة واسعة مليئة بالحطام والأطلال، وسرعان ما تكشف له أن معظم الأجزاء الأخرى تعانى هى أيضًا من كثرة الأتربة والغبار العالق بالجو الذى قد يسبب الاختناق حين تهب الرياح. أما المنطقة المحيطة مباشرة بالمدينة فهى سهلية وغير حيوية وتنتشر بها المراعى ويعيش أهلها بلا أمان، وأحياء المدينة بنيت من طين وآجر. وفى ذات الوقت فالمدينة فى نظره عريقة ونبيلة وتشتمل على عدد من القصور الفخمة وسط بساتينها النضرة، وتمتد أطرافها لتشمل مساحة شاسعة وتحيط بها الأسوار العالية بامتداد أربعين ميلاً تتخللها اثنتا عشرة بوابة، ثلاث منها فى اتجاه الجنوب[1]، وهى : العدالة–الجميلة Belle-Justice،الثقافة– العالية Haute-Culture، الخلافة السعيدة[2] Heureuse-Succession. وجدير بالذكر أن كلاً من أودوريك

---

(1) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 185; Cf also Matrod, H., Op. Cit., p. 127., N.50.

(2) Oswald Siren, The Walls and Gates of Peking, London,1926, pp. 15-33.
ويضيف الباحث نفسه أسماء ثمانية بوابات للمدينة إلى ما ذكره من أسماء للبوابات الجنوبية وهى فى الشرق بوابات: الرأفة الغالية Chérie Bienveillance ، التأثير الرقيق Douce Influence، والعظمة المجيدة Glorieux Eclat، وفى الغرب بوابات: الحق المتوازن Droit Harmonieux، الطهارة الرسمية Solennelle Pureté، والقانون الصحيح Juste Loi، أما فى الشمال بوابتى: الطهارة الوديعة Pureté Pacifique والفضيلة الجسورة Vigoureuse Vertue

والهمذانى اتفقا على أن جنكيز خان الذى غزا المدينة قام بتخريب أجزاء منها، لكن قوبيلاى اتخذها عاصمة لدولته نظرًا لتوسطها البلاد العامرة، وقد اختار موقعًا قريبًا من المدينة مستعينًا بالمنجمين والحكماء، لينشيء فيه مدينة جديدة أسماها تايدو Taydo أو "دايدو" اتصلت بمدينة كامباليت وأحاطهما بالأسوار المنيعة المرتفعة ثم امتد العمل فى عمارتها حتى عهد ابنه الخان تيمور أولجاتيو[1] Temur Oljeitu (١٢٩٤-١٣٠٧م.) وكان جون دومون كورفن قد ذكر أن أعداد بوابات المدينة إحدى عشرة بوابة وعليه فربما كانت البوابة المختلف عليها فيما بين هذين المبشرين قد أضيفت فى فترة العشرين عامًا تقريبًا التى فصلت بين وصول كليهما إلى كامباليت[2] . وعامة يفهم من وصف أودوريك للمدينة أنها شهدت تطورًا كبيرًا فى مجال المعمار على يد المغول الذين دللوا على تفوقهم فى إنجاز الكثير من المشاريع الضخمة.

كانت كامباليت وقت إرسالية أودوريك مقرًا شتويًا للإمبراطور المغولى فى الصين حيث كان يقيم بها بصفة أساسية فى الفترة من ديسمبر حتى فبراير أما خلال فصل الصيف من يونيو حتى أغسطس فعادة ما كان ينتقل إلى مدينة ساندو Sando الجبلية حيث المناخ الرائع فى ذلك الفصل. ووردت المدينة عند ماركو بولو بمسمى شاندو Shandu وهى الآن مدينة شانجتو Shang Tu التى أرجع فضل بنائها إلى قوبيلاى خان[3] . وهكذا نجد شبه اتفاق بين الأوربيين فى ذكر المسمى، بيد أن أودوريك كان محددًا حين سجل معلوماته مؤكدًا على ظاهرة اتخاذ حكام المغول مشاتى ومصايف لهم، وهى الظاهرة المسجلة فى بعض المصادر الأخرى إذ ورد عند الهمذانى أن قوبيلاى خان جعل من مدينة كيمين فو مصيفًا له وحدد موقعها على بعد

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 185.

الهمذانى : المصدر السابق، م٢، ج٢، ص ٢٧١.

(٢) C.F. Marcellin deCivezza., Op. Cit., Vol. I, p. 155.

(٣) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 188; Marco Polo, Op. Cit., p.105

خمسين فرسخًا من العاصمة ربطت فيما بينهما ثلاثة طرق(١)، وبرغم عدم تشابه اسمي المصيف فيدو أنهما يشيران إلى موقع واحد.

ويرى الباحث أن أودوريك سعى إلى الوصول إلى المقر الصيفي للخان وتمكن من ذلك بالفعل، وهذا يتبين من خلال وصفه الدقيق لأبنية ساندو بالرغم من أنه لم يكشف صراحة عن ذهابه إلى هذا المنتجع. وحسبما أورد فإنه كان يصف أبنية كامباليت، ومما يبرهن على وقوعه في لبس -وربما كان اللبس بفعل النساخ- وصفه لأحد قصور ساندو بدقة. ومما ذكره عنه أن ملكيته ترجع إلى مواطن إيطالي ثري يدعى بيتو لوكالونجو Pito Lecallongo أشار إليه في موضع آخر بأنه رافق جون دو مون كورفن في قسم من رحلته إلى الصين عام ١٢٩٣م. والقصر مقام وسط أرض تم رفعها عن مستوى سطح الأرض المجاورة بارتفاع قدمين وتحيط به الأشجار بكثافة حتى عُرف المكان باسم الجبل الأخضر، وعند المنحدر تم حفر بحيرة واسعة يخترقها جسرٌ واستخدمت البحيرة والأرض المحيطة كمستعمرة مفتوحة يجتمع فيها البط والأوز والبجع والأسماك إضافةً إلى الدواجن، يأتي إليها صاحب القصر بل والإمبراطور بغرض الصيد إذ لا تكون هناك حاجة للذهاب إلى الغابة لذلك الغرض(٢). وعندما تحدث الهمذاني عن نشاط قوبيلاي خان في مجال المعمار تعرض إلى تشييده قصر بالقرب من مصيف كيمين فو حيث تم ردم بحيرة صغيرة بالحصى والآجر المفتت، وصُب عليها القصدير والرصاص وجُعل ارتفاعها عن الأرض بقدر قامة رجل، ولما كانت المياه محتبسة في جوف الأرض تسربت إلى الجوانب الأخرى، فتفجرت عيونًا، وعلى المرتفع أقيم قصر على الطراز الخطائي وأحيط بالأسوار وجُمع حوله أنواع من طيور الصيد، وعلى بعد رمية سهم تم إنشاء قصر أصغر ربط بالقصر الأول بممر خاص، وكان قوبيلاي خان يقيم في القصر الخارجي الأصغر، أما ماركو بولو الذي كان له السبق

---

(١) Ibid, p. 128.

راجع أيضًا: الهمذاني: المصدر السابق، م٢، ج٢، ص ٢٧٠-٢٧٣.

(٢) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,pp. 185,188.

فى وصف قصر الخان بالقرب من ساندو فقد أبدى إعجابه الشديد بفخامة البناء وامتداده الشاسع وتكويناته ومشتملاته[1].

وباستعراض الروايات المختلفة نجد أن أوضحها رواية الهمذانى الذى حدد وجود قصرين امتلك قوبيلاى خان الأصغر منهما، فأتاح لنا فرصة تصديق أودوريك فى إنساب القصر الأكبر إلى التاجر الإيطالى. كما يتضح أن كليهما يتفق بشكل واضح فى وصف المعالم الرئيسية للقصر، فى حين لم تتفق معالم القصر الفخم الذى صوره ماركو بولو مع ما ورد لدى المبشر والوزير المسلم فى هذا الشأن، وقد يرجع ذلك إلى أن ماركو لم يعاصر إنشاء القصر الأكبر فاقتصر وصفه على القصر الأسبق فى البناء نظرًا لتدوين الروايتين الأخريتين فى مرحلة قريبة تالية. وعلى ذلك فإذا ما سلمنا بما ورد عند المبشر والوزير المسلم نجد الفرصة متاحة للأخذ برواية الهمذانى فيما يختص بسكن الخان للقصر الخارجى (الأصغر) والأخذ برواية أودوريك من أن الخان الذى لم يذكر اسمه كان يتردد على التاجر الإيطالى لزيارته فى قصره الكبير المجاور وذلك عبر جسر ربط بين القصرين يمر من فوق ماء كما أشار كلاهما. ومن ثم فليس من المستبعد أن يكون القصر الكبير قد امتلكه التاجر الإيطالى وأن الخان كان يذهب إليه بحكم صداقة ربطت فيما بينهما بغرض الخروج معًا للصيد. وما ينبغى التنبيه إليه أن الخان المقصود فى هذا الوقت لم يكن قوبيلاى نظرًا لأنه قضى نحبه فى عام١٢٩٤م حين شرع التاجر صاحب القصر الكبير فى مشاريعه الإنشائية، وبالتالى يعتقد فى أن الخان تيمور أولجاتيو هو الذى كان صاحب تلك العلاقة الطيبة مع الإيطاليين: جون دو مون كورفن ورفيقه بيتو.

وفيما عدا ما أورده أودوريك من وصف إجمالى للمدينة فمادته عنها يشوبها بعض من التداخل والاضطراب، غير أنه بتصنيف تلك المادة تم تحديد ثلاثة اتجاهات أساسية وهى: ما يتعلق بالدعوة التبشيرية الفرنسيسكانية والقواعد التى انطلقت منها

---

(1) الهمذانى: المصدر السابق، م٢، ج٢، ص ٢٧٤.

Marco Polo, Op. Cit., pp. 105-106.

فى المدينة ومدى ما وصلت إليه من نجاح. أما الاتجاه الثانى فهو يتعلق بأدوات الحكم المعقود عليها أمل البابوية لتنفيذ المخطط التبشيرى المتمثلة فى القصر الإمبراطورى والإدارة والجيش. ولا غرو فهذين الأمرين مكملين بعضهما الآخر كما سيتضح لنا فى الصفحات التالية. أما الاتجاه الثالث فهو منصب على إبراز خلاصة جهود أودوريك التبشيرية مما استوجب منه الاحتكاك بالمجتمع ومن ثم التعرض لبعض عادات وتقاليد الشعب الصينى.

ففيما يتعلق باتجاه العمل التبشيرى والظروف المحيطة به تحدث أودوريك عما أسفرت عنه الجهود السابقة عليه فى هذا المضمار وقد تمخضت عن ثلاثة كنائس تخص الرهبان المبشرين غير الراشدين كانت واحدة منها قد شيدها الأرمن[1] (النساطرة) ولم يتحدث المبشر عن الظروف التى أحاطت بتحول هذه الكنيسة عن مذهبها الأصلى، بيد أن هذه الظروف تتكشف لنا حينما نعلم أنه فى حوالى عام ١٢٩٣م عندما وصل مبشر الصين الأكبر جون دو مون كورفن من قبل بابا روما إلى كامباليت تصدى له النساطرة واضطهدوه وأرادوا الإيقاع به مع الخان المغولى واتهموه بالكذب والنصب ولم يُبرأ من هذه التهم إلا بعد محاكمة عُقدت له اكتسب بعدها عطف الخان، وأمر بنفى المتآمرين وذويهم[2] ، ويبدو أن هذه الواقعة كانت نقطة تحول لصالح الدعوة الفرنسيسكانية ومؤشر ذلك تحول العقيدة فى هذه الكنيسة النسطورية إلى الكاثوليكية.

أما عن الكنيسة التالية فقد جاء الحديث عنها فى إطار التعرض إلى قصة تشييد الدير فى كامباليت حيث حدد أودوريك موقعه فيما بين بوابة الثقافة العليا والقصر الإمبراطورى، وهو بذلك يقع فى المنطقة الجنوبية من المدينة. كما تناول الظروف التى أحاطت بأعمال البناء ؛ فذكر أن المبنى أقيم فى وسط قطعة كبيرة من الأرض كان قد اشترها بيتو لوكالونجو التاجر الإيطالى الثرى الذى تم التعرف عليه آنفًا ثم وهبها إلى الرهبان. وأضاف أنه سرعان ما أقيم المبنى فى عام ١٣٠٥م. وذلك

---

(1) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,pp. 188-189.

(2) لمعرفة المزيد عما واجهه جون دو مون كورفن من مؤامرات لدى وصوله كامباليت راجع:
Marcellin deCivezza, Op. Cit., Vol I, pp. 168-170.

خلال فترة قصيرة امتدت من بدء شهر أغسطس حتى الرابع من أكتوبر فى العام ذاته مقدرًا أعداد المسيحيين الذين وسعهم المبنى الذى علته علامة الصليب الأحمر عدد مئتين مسيحى صينى، هذا وقد ضمت المنطقة محال تجارية تخص الطائفة. وكانت الكنيسة الملحقة بالدير قد شيدت على عجل أيضًا فى ذات الموقع حتى أنها غدت تستقبل زوارها فى فبراير عام ١٣٠٦م(١). والواضح أن هذه الكنيسة قد اتخذت الطراز الصينى فى البناء، إذ استخدم الخشب كعنصر أساسى فى تشييدها شأنها فى ذلك شأن ما اتبع فى بناء القصر الإمبراطورى ذاته(٢) والذى سوف تتعرض له الدراسة لاحقًا. أما الكنيسة الثالثة فلم نجد لها ذكرًا عند أودوريك.

وفى إطار الحديث عن النشاط التبشيرى نجد مجالاً هنا للوقوف على حدث التقاء أودوريك مع كبير أساقفة هذه الطائفة فى الصين جون دو مون كورفن، وبعد أن تعانق الرجلان واستقبل أودوريك بترحاب شديد وجد فى هذه المناسبة الفرصة كى يروى على الحضور سواء أكانوا من رجال الدين الفرنسيسكان أم من الصينيين أبرز ما واجهه من صعاب فى رحلته وإنجازاته فى مجال الدعوة، فأثنوا عليه وقدموا له واجبات الاحترام والتبجيل لما أظهره من مثابرة وجلد. ولعل أهم ما يمكن التأكيد عليه من أهمية فى هذا اللقاء أن المبشر أبدى إعجابه وانبهاره بما حظيت به الطائفة الفرنسيسكانية من حب أهل كامباليت بل وحب القصر الإمبراطورى والموظفين ورجال الدولة.(٣)

أما عما يختص بالاتجاه الثانى فيما أورده أودوريك عن كامباليت الذى تناول فيه بعض مظاهر السلطة وأدوات الحكم المغولى، فقد احتل قصر الخان الأعظم مكانًا بارزًا فيه، فهو يقر بأنه حضر بنفسه العديد من الاحتفالات داخله، وأنه سجل ذكرياته عنه انطلاقًا من كونه شاهدًا للعيان؛ ومما عنى بوصفه للمبنى أنه جدير بتحريك الحس، إذ يعد عجيبة لا يمكن أن تضاهيها عجيبة أخرى من حيث الضخامة والفخامة والبهاء

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,p.188; Cf. also: Matrod, H., Op. Cit., p.129.

(٢) Matrod,H., Op. Cit., p. 129.

(٣) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 187, Cf. also, Marcellin deCivezza, Op. Cit., vol I, pp. 287-288.

«فمدخله يرتفع نحو قدمين عن سطح الأرض وتحيط به الأسوار التى تتخللها البوابات، وينتشر داخله عدد أربعة وعشرين عمودًا طليت بالذهب. أما الحوائط فمغطاة بجلود مصبوغة بلون أحمر قيل إنها من أفخر أنواع الجلود فى العالم، وفى وسط القصر يرتكز حوض كبير من الذهب على حجر كريم ضخم بارتفاع قدمين هو بمثابة القاعدة، وتتدلى من أطراف الحوض لآلىء نفيسة وذات حجم كبير، فى حين ينبثق من كل جانب من الجوانب الأربعة للقاعدة ثعبان من ذهب فاغر فاه ويُغمر الحوض بشراب الإمبراطور، وبجواره تصطف آنية من ذهب أُعدت للشرب يستخدمها المترددون على القصر. وفى أجزاء أخرى من القصر، يَمثُل عدد كبير من الطواويس المصنوعة أيضًا من الذهب، وحينما يريد أحد التتر مداعبته [أى الخان] فيصيح مصفقًا وحينئذ تفتح الطواويس أجنحتها وتبدو للرائى أنها تتحرك». وكان هذا الأمر جديرًا بأن يبدى أودوريك له اندهاشه الشديد، وأرجع سبب ذلك إلى أمرين: فإما هناك عمل شيطانى، وإما أن يكون وراءه شخص ما متخفٍ يحرك هذه الأجسام[1] .

وبرغم ما سجله أودوريك من مادة طيبة عن عمارة القصر، إلا أنها فى حقيقة الأمر جاءت مختصرة شاملة وهذا الأمر يتضح حين الرجوع إلى كتابات المعاصرين له المهتمين بوصفه؛ حيث حدد ماركو بولو موقعه فى الجزء الجنوبى من كامباليت، فى حين حدده ابن بطوطة فى وسطها. ثم أوضح ماركو شكله فذكر الأسوار التى اكتفى أودوريك بتسجيل وجودها، بيد أن التاجر البندقى عرفنا بأن أرضية القصر قد اتخذت الشكل المربع، ويحيط بها خندق عظيم، كما حدد الأبعاد وقدر بشىء من المبالغة طول الضلع بثمانية أميال، وتتخلل هذه الأضلاع بوابات حدد ابن بطوطة عددها بسبع، وتم تخصيص مسافة ميل واحد للعسكر داخل الأسوار لتبدأ أسوار أخرى، وقد تخللت الأسوار الداخلية هذه ثلاث بوابات من جهة الجنوب وثلاث أخرى من جهة الشمال، خصصت البوابة الوسطى وهى الأكبر فى كل منهما للإمبراطور. ثم أفاض ماركو بولو على مدى صفحات فى الحديث عن الأبنية الداخلية

---

(1) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,p. 186.

والمخازن العسكرية والمزاغل والحواجز والبساتين إلى أن وصل فى حديثه إلى وصف القصر ذاته مشيرًا إلى ما أشار إليه أودوريك أيضًا بأنه شيد على مرتفع صناعى من الأرض[١] موضحًا أن ذلك كان بغرض التخلص من ماء المطر والاستفادة منه فى رى البساتين. ثم انتقل إلى وصف المبنى مبينًا أنه كان من طابق واحد ولكنه ذو سقف شديد الارتفاع[٢] .

وفى داخليات القصر يتأكد أيضًا صدق ما ذكره أودوريك من وصف عند مقارنته بما ورد عند ماركو بولو، بل وعند ابن بطوطة الذى جاء بعدهما؛ فقد أفاض البندقى فى الحديث عن الأفاعى الذهبية وعن الأعمدة والألوان الزاهية والأوانى الذهبية والفضية وعن القاعات الكبرى والغرف وما ازدانت بها. أما المغربى فيقول: «وجميع أهل الصين إنما يحتفلون فى أوانى الذهب والفضة»[٣] ، وبذلك لا نجد اختلافًا بيّنًا فيما ورد عند الرحلين الأوربيين (أودوريك وماركو) إلا فيما يتعلق بحوض شراب الملك الذى كان أودوريك قد تناوله بالوصف التفصيلى، فى حين تناول ماركو تجسيد الأجزاء الأخرى من المبنى بوضوح. ونخرج من عقد هذه المقارنة بأن الخان المغولى الذى عاصر أودوريك خلال إقامته فى كامباليت كان قد أبقى على مقر حكم جده قوبيلاى خان ليكون مقرًا له. علمًا بأن الخان آنذاك هو يسون تيمور Yesiim Temiir ١٣٢٣-١٣٢٨م.

---

(١) Marco Polo, Op. Cit., pp. 132-135.

اهتم ابن بطوطة فقط بشرح حال بوابات القصر والقائمين عليها والحاشية. راجع : رحلة ابن بطوطة، ص ٦٤٤. هذا وقد دخلت الكثير من التعديلات والإضافات على القصر كما دمرته النيران عدة مرات ولذا فهو حاليًا يختلف عن ذى قبل، كما لايزال هذا المرتفع الصناعى موجودًا إلى وقتنا هذا ولايزال يحتفظ باسمه الأصلى كنبج شان، ولكن يبدو أن أربعة مرتفعات أخرى من حجم أصغر أضيفت إليه منذ ذلك التاريخ. راجع: ماركو بولو: المصدر السابق (الترجمة العربية) ص ١٤٣، ح ١٣، ١٥.

(٢) Marco Polo, Op. Cit., pp. 128 -129 .

(٣) Marco Polo, Op. Cit., pp. 129 -130.

ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦٣٠.

ثم ينتقل أودوريك إلى رسم صورة حية لمجلس الخان الأعظم فى حضرته داخل القصر، فبينما يعتلى الخان العرش، فالملكة تجلس على يساره فى مستوى ينخفض درجتين ويليها الأميرات اللاتى من النسل الملكى وفى صحبتهن الوصيفات، وتكاد الأميرات، بخاصة المتزوجات منهن، تغطيهن الزينة والتيجان المرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة. أما على يمين الخان فيجلس أكبر أبنائه والوريث الشرعى للتاج، وينخفض عنه بدرجة مجلس الأمراء الذين يجرى فى عروقهم الدم الملكى أيضًا، ذكر رشيد الدين الهمذانى أنه كان يطلق عليهم "جينكسانك" ثم يواصل أودوريك وصفه فيعلمنا بأنه يلى هؤلاء أربعة من كبار الموظفين مهمتهم تدوين كل كلمة ينطق بها الخان، ويعلمنا الهمذانى أيضًا أن ذلك كان بمثابة قاعدة تتبع فى مجالس أمراء الولايات، حيث كان يلازم كل منهم أربعة كتاب لمعاونته فى أمور الحكم. ويستأنف المبشر رسم الصورة؛ أما فى المواجهة يصطف عدد من كبار الأعيان والنبلاء فى الدولة لا يمكنهم إصدار أى صوت إلا إذا سمح لهم بذلك، وفضلاً عن هؤلاء هناك مجموعة هم بمثابة المستشارين يقومون بتصحيح ما يصدر عن الخان من أخطاء فى حدود اللياقة المتعارف عليها. وأخيرًا توجد مجموعة الرجال المسئولة عن الأمن داخل القصر، يقف بعضهم عند الباب ولا يسمحون بدخول أى شخص إلا بتصريح وإلا تعرض للضرب المبرح(١)، والواضح أن هؤلاء اختصوا بتوفير الأمن داخل القصر. وعسى بذلك أن قصد المبشر وصف الديوان الأعظم بالقصر "شينك" للعاصمة كامباليت، وذلك استنادًا على ما أوضحه لنا الهمذانى الذى سبقه تاريخيًا إذ قال: «والديوان الأعظم لخان باليق فى غاية العظمة وتحفظ فيه دفاتر الديوان منذ عدة آلاف من السنين ويضبطونها بدقة. وفيه أيضًا

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,pp. 186-187

الهمذانى: المصدر السابق، م٢، ج٢، ص ٢٧٠، ٢٧٥-٢٧٦. وقد أفاض هذا المؤرخ المسلم فى عرض السلم الوظيفى حسب المراتب وكشف الكثير عن مهامهم الوظيفية والمسميات المستخدمة بدقة نادرة.

يحفظون القوانين بكل عناية. وموظفو ذلك الديوان قرابة ألفي شخص»[١] . وهكذا، نجد المبشر قد ساهم بفاعلية في التعرف على مجلس الخان المغولي.

وفي المناسبات العامة وحين عقد الولائم الرسمية يتم وضع تسعة آلاف رجل من السادة النبلاء Seigneurs في خدمة الخان يضع كل منهم على رأسه تاجًا من الذهب، ويرتدي لباسًا مرصعًا بالماس والأحجار الكريمة تقدر قيمته بما يربو عن عشرة آلاف فلورن، ولكل مائة من هؤلاء النبلاء الخدم قائد بغرض أن يكون الانضباط تامًا فيما بينهم[٢] . وهذه الرتبة لها ما يقابلها في تشكيل الجيش حيث تبرز رتبة أمير مائة. وفي حقيقة الأمر فملاحظة أودوريك عن هؤلاء النبلاء الخدم لا تبتعد كثيرًا عن الواقع، إذ أن التنظيم الذي وضع أساسه جنكيز خان منذ ما يربو عن القرن لإمبراطوريته يقضي بتشكيل حرسه الخاص من مائة وخمسين رجلاً من المختارين يعرف الواحد منهم باسم كشيكجي، ثم اكتمل العدد ليبلغ عشرة آلاف رجل تقريبًا ممن عرفوا بالقوة وشدة البأس وكان الواحد منهم أعلى مرتبة من قائد الألف رجل في الجيش، وكان يتولى أمر الحراسة منهم مجموعتان، إحداهما للنهار والأخرى لليل[٣] ، ويُختار منهم ألف رجل يسمى كل واحد منهم (بهادر) أي الشجاع المبارز، وكان هؤلاء يلازمون الخان لخدمته ولا يخرجون للقتال إلا معه ولا يتلقون الأوامر إلا منه[٤] ، وبالتالي نلمس بوضوح دقة تقدير أودوريك لعدد حرس الخان بعد أن يوضع في الاعتبار طرح عدد الألف حارس الذين يقومون بالخدمة اللصيقة له جانبًا من العدد الإجمالي المذكور.

أما عن موكب الخان وفقًا لرواية أودوريك، فإذا أراد الارتحال من مكان إلى آخر، فكان عليه الخروج وسط أربع فرق من سلاح الخيالة، تتألف كل واحدة منها من

---

[١] نفسه، م٢،ج٢، ص ٢٧٨.

[٢] Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,p. 187

[٣] السيد الباز العريني: المرجع السابق، ص ٥٥-٥٦. راجع أيضًا: فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ، ج١، ص ٣٥٩-٣٦٠.

[٤] القلقشندي: المصدر السابق، ج٤. ص ٤٢٤،٤٢٨؛ محمود سعيد عمران: المغول وأوربا، الإسكندرية ١٩٩٧م. ص ٣٤-٣٥.

خمسمائة فارس؛ وهكذا يكون عدد المصاحبين للخان ألفى رجل، وهذا العدد هو بمثابة قاعدة لا يمكن تجاوزها، وإذا ما وقع عجز فى هذا العدد بسبب الوفاة يتم تعويضه على الفور، وتكتمل العملية التنظيمية لحركة الموكب الإمبراطورى وفقًا لرواية أودوريك على النحو الآتى: يتم وضع الترتيبات لتحركات الموكب بدقة مسبقًا، وتتقدم الفرقة عن التى تليها بفارق مسيرة يوم على أن يكون موقع الخان فى منتصف المسافة بين الفرقتين الثانية والثالثة، وباتباع هذا النظام فدائمًا ما يكون المكان المتوجه إليه على أهبة الاستعداد لاستقبال الخان. أما عربته فهى ترتكز على عجلتين ويعلوها عرش فاره مصنوع من خشب الصبار الصلب ومرصع بالذهب والأحجار الكريمة، وتقوم أربعة فيلة وأربعة خيول بجر العربة، ويتولى أربعة من السادة الحراسة الخاصة للإمبراطور كان يطلق عليهم لفظة شيش Chuche كما يحيط بالعربة عدد اثنى عشر كلبًا مدربين على الصيد، عادةً ما يطلقهم الخان لصيد الطيور على ما يبدو بغرض التسلية، وليس مسموحًا لأى شخص أن يقترب من هذه العربة تحت أى ظرف إلا بمسافة معينة. وهذه المراسم المتبعة بالنسبة لموكب الخان هى ذاتها التى تتبع بالنسبة لموكب الابن الأكبر للخان، وكذلك زوجته الملكة بيد أنها كانت تحاط بوصيفات[1]. وينبغى التأكيد على أن هذا التشكيل للموكب معتمدًا على العسكر ليس بتشكيل الجيش القتالى عند المغول، إذ يلاحظ فيما أوردته المصادر أن الجيش كان يتبع الأسلوب المألوف الذى يقوم أساسًا على تقسيمه إلى ميمنة وميسرة وقلب،وهكذا.[2] وعلى أية

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,pp. 187-189.

(٢) ابن الفوطى البغدادى (ت ٧٢٣هـ./ ١٣٢٣م.) : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، تصحيح وتعليق مصطفى جواد، بغداد، ١٣٥١هـ، ص ١١٢. ولمعرفة التفاصيل الخاصة بتشكيل الجيش المغولى وبعض الفنون العسكرية المتبعة راجع: حافظ حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، القاهرة ١٩٤٩م، ص ٢١٥. راجع أيضًا : فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى، قدم له وراجعه: جوزيف نسيم يوسف، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٣٣-٣٦.

حال فوصف موكب الخان على هذا النحو يعطى انطباعًا قويًا بمدى النعيم الذى يحيط بأسرة يوان المغولية الحاكمة.

وإذا ما كانت هذه هى المراسم الواجب الالتزام بها بين صفوف موكب الخان، فماذا عن موقف الأهالى منه عند زحفه ؟ فقد تحدث أودوريك عن ذلك أيضًا فأخبرنا بأنه قد جرت العادة عندما ينتقل الخان مع موكبه من مدينة إلى أخرى أن تستقبله الأهالى بمزيد من البهجة وذلك بإيقاد النيران أمام أبواب منازلهم ويقذفون فيها بأصناف البخور النادرة تعطيرًا للهواء الذى يستنشقه الخان، فى حين تخرج الحشود لاستقباله[١]. ومن ثم نلمس أن عنصر إظهار الطاعة دائمًا ما يكون واضحًا بين أفراد الشعب الصينى بشتى طبقاته تحت السيادة المغولية بداية من السادة والمعاونين المحيطين بالخان، وانتهاءً بجموع الرعايا من الشعب الذى تشبع بالالتزام والطاعة.

وهناك قيمة حضارية إضافية أمدنا بها أودوريك فى حديثه عن السلطة الحاكمة، وفى هذه المرة تعرض إلى امتداد الإمبراطورية والتقسيم الإدارى، فذكر أنها من الاتساع بحيث لا يمكن قطعها سيرًا طولاً أم عرضًا إلا فى ستة أشهر على الأقل، وفضلاً عن ذلك فهناك حوالى خمسة آلاف جزيرة بها من الإمكانات ما تكفى أهلها بل والزوار. هذا وقد قسمت الإمبراطورية إلى اثنتى عشرة ولاية احتوت إحداها على مملكة مانزى القديمة التى كانت تضم وحدها ألفى مدينة مهمة[2]. وعلى هذا النحو فإن عدد الولايات التى ذكرها يتفق مع ما أوردته المصادر الإسلامية المعاصرة، وبالتالى يختلف مع ما ذكره ماركو بولو سالفًا من أنها سبع ولايات فقط[٣]، وقد يرجع ذلك

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 189.

(٢) Odorio Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., Loc. Cit.

(٣) الهمذانى، المصدر السابق، م٢، ج٢، ص ٢٧٨-٢٨٠.

Marco Polo, Op. Cit., p. 128.

اللفظة الإدارية التى عبر بها الهمذانى عن كل ولاية هى كلمة: شينك، وأضاف أنه لما كانت تلك الممالك بعيدة عن بعضها البعض، فإنه يقيم فى كل منها أحد الأمراء من أبناء الخان أو أمير مشهور ومعه جيشه، وإليه يرجع أهل تلك الولاية، ويصرف مهامها ومصالحها، ويديرها ويحافظ عليها.

إلى إحداث نوع ما فى التطوير الإدارى داخل الدولة. أما عن اتساع الدولة بهذا القدر فلا يبدو معقولاً إلا إذا ما كان يقصد تقدير امتداد الممالك المغولية مجتمعة بحيث تشمل قاطنى روسيا والهند وفارس إضافة إلى مغول الصين. ومن ثم يمكن القول بأن أودوريك كان ذى إدراك جيد يدفع إلى تقدير كتاباته برغم ما قد يكون بها من تجاوز، نظرًا لضحالة المعلومات الجغرافية والإدارية بعامة فى هذا العصر.

من ناحية أخرى، تعرض صاحب الإرسالية لنظام البريد فى الدولة، فذكر لنا نوعين منه، يعتمد الأول على استخدام الخيول أو الجمال للانتقال على مراحل من هيام Hiam إلى آخر، وهى أبنية حكومية حرص الخان على إقامتها فى شتى أرجاء دولته، خدمةً للبريد، والعادى منه يقوم على أساس أن يمتطى ساعى البريد فرسه لينتقل إلى الهيام الآخر، وينفخ فى البوق حين الاقتراب منه بغرض استنفار ساعى البريد فيه، وبمجرد الوصول يقوم بحمل الرسالة وامتطاء فرس آخر كان قد قام بإعداده إلى هيام آخر وهكذا ... حتى تصل الرسالة أو الخبر إلى الإمبراطور (الخان) فى حاضرته. أما العاجل فلا يختلف نظامه عن البريد العادى إلا فى استخدام الجمال. ونقل الخبر بهذا الأسلوب لا يستغرق سوى يوم واحد كى يصل من أقصى طرف فى الإمبراطورية إلى الخان، فى حين إذا لم يُتبع هذا النظام، فقد يستلزم وصول الخبر فترة مضاعفة. وفيما يختص بالنوع الثانى من البريد بأنه يعتمد على الأفراد، ويقوم على أساس تخصيص منازل لسعاة البريد تدعى شيديبو Chidebo تفصل فيما بينها مسافة ثلاثة أميال يقطعها الساعى جريًا رابطًا حول خصره حزامًا ينتهى ببوق ينفخ فيه حين اقترابه من الشيديبو التالى حتى ينبه المسئول فيه ليتلقف منه الرسالة إلى شيديبو آخر ومسئول آخر لينتهى الأمر بمقر الإمبراطور. وهكذا يصبح باستمرار محيطًا بآخر الأخبار تباعًا، وفى فترة وجيزة.[1]

وظاهرة تنظيم الخدمة البريدية فى الصين تعد من العلامات الحضارية المتطورة لهذه البلاد فترة العصور الوسطى، ويرجع البعض فضل ترتيبها إلى جنكيز خان الذى

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,pp. 189-190.

أولاها الاهتمام بغرض ربط أوصال إمبراطوريته الآخذة فى الاتساع بشكل مضطرد[1]

وهناك مصادر أوربية وإسلامية أبدت قدرًا واضحًا من العناية بإبراز هذه الظاهرة، وليس من المستغرب أن نجد فى كتابات ماركو بولو ما يُعد تفصيلاً لما أتى به أودوريك من وصف لها، إذ تحدث عن نوعين من الخدمة، يعتمد الأول على الخيل والآخر على الأفراد متفقًا مع أودوريك فيما أورده فى هذا الشأن. فى حين أطلق على مراكز خدمة البريد الحكومية مسمى يامب Yamb وحدد المسافة بين المحطة والأخرى باستخدام الخيل بمائتى ميل فى النهار ومثلها فى الليل، وذلك باستخدام المشاعل. كما تستخدم الأجراس المربوطة على الخصر فى تنبيه الفارس المتأهب لاستلام الرسالة من المحطة التالية. تلك الوسيلة التى استبدلت باستخدام البوق طبقًا لذكر أودوريك وقدر ماركو عدد الخيل فى محطات البريد مجتمعة المعدة لذلك بثلثمائة ألف فرس، وفى كل محطة أربعمائة منها، تعمل بالتناوب. وهذا يعنى أن الدولة ضمت سبعمائة وخمسين مركزًا للبريد. أما فى حالة نقل الرسالة عن طريق الأفراد السعاة فكان الواحد منهم يستخدم الجرس، وفى المناطق المعمورة يقطع مسافة تتراوح بين الخمس والعشرين والثلاثين ميلاً حتى يصل اليامب التالى ليسلم الرسالة إلى ساعٍ آخر وهكذا. وفى الأصقاع غير المأهولة كان يقطع مسافة تتراوح بين الخمس والثلاثين والأربعين ميلاً، وذلك فى مدة ثلاثة أيام.[2] وهو بذلك يختلف مع أودوريك فى تحديد المسافة المقطوعة، ومع ذلك فبصفة عامة نجد ثمة رؤية قريبة الشبه لدى كل من الرحالة والمبشر تجاه هذا النظام بشكل يتيح أمام الباحث فرصة الاعتقاد فى أن أودوريك إطّلع على رحلة ماركو أو أفاد منها.

وقد ساهمت المصادر الإسلامية بنصيب فى توضيح هذا الشأن؛ إذ ورد فى أحدها أن الخان اهتم بإنشاء ديوان يتعلق بشئون البريد والسعاة يسمى ديوان تونجنيون، واهتم مصدر إسلامى آخر بالشأن ذاته فأضاف موضحًا أن هناك موظفًا كبيرًا عُيّن

---

(١) أيرين فرانك وديفيد براونستون: المرجع السابق، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) Marco Polo, Op. Cit., pp. 163-167.

على هذا الديوان يدعى "أمير الإخباريين" ثم أعطى المصدر ذاته بعض التفسير والتفصيل بقوله: «إن لهم [أى المسافرين] فى كل منزل ببلادهم فندقًا عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفرسان والرجالة، فإذا كان بعد المغرب والعشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها، وأقفل باب الفندق عليهم. فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه، فدعا كل إنسان باسمه وكتب به تفصيلاً، وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثانى له، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه، وإن لم يفعل طلبه بهم. وهكذا العمل فى كل منزل ببلادهم من صين الصين [سونستالاى - كانتون] إلى خان بالق [كامباليت - بكين]. وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد...»(١). وهذه العبارة وإن كانت منصبة على خدمة المسافرين إلا أنها تلقى ضوءًا على جهود الدولة المغولية فى الصين لتنظيم حركة النقل عامة عبر الطرق التى تربط أطرافها الممتدة، ومن ثم يُظن أن المراكز التى عرفها المصدر باسم الفنادق بما ضمت من مسئولين ممثلين فى الحاكم وكاتبه وكذلك فى الفرسان والرجالة كانت هى ذاتها الهُيام والشيديبو الذين أشار إليهما أودوريك، واليامب كما أوردها ماركو. ولعل تشابه لفظة هُيام ولفظة يامب مع كلمة خيام العربية ترجح أن دور البريد كانت تتخذ شكل البيوت السكنية عند المغول داخل الخيام خاصة فى البرارى والسهوب(٢). وعلى كلٍ فقد نجح أودوريك فى توضيح بعض الجوانب الخاصة بهذه الخدمة وفى التأكيد على ما جاءت به المصادر الأخرى من معلومات فى هذا الصدد.

ولرحلات الصيد التى يقوم بها الخان وصف فى كتابات أودوريك يوحى بأنه كان شاهد عيان لها، إذ يذكر أنه على بعد قدّره بمسيرة عشرين يومًا من كامباليت

---

(١) الهمذانى: المصدر السابق، م٢، ج٢، ص ٢٧٧؛ انظر أيضًا ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٦٣٢،٦٤٤.

(٢) للتعرف على مساكن المغول وتجهيزات الخيام، انظر: فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ص ٣٣٢ - ٣٣٤.

كانت توجد غابة شاسعة يوغل فيها لمدة عشرة أيام تضم جميع أنواع الحيوانات. وعند بداية الغابة كانت توجد العديد من المخافر المتجاورة لتقوم بمهمة الحراسة، وهذا يبين أن الغابة تم إعدادها بحيث يقصدها الخان بغرض الصيد. ثم تحدث صاحب المدونة عن التفاصيل الفنية الخاصة بهذه العملية بشكل محدد، فتطرق إلى اعتياد الخان على القدوم بمعدل كل ثلاث أو أربع شهور مع حرسه إلى الغابة ويتم إطلاق الكلاب والطيور المدربة على الصيد فيها، وسرعان ما تنجح في مهمتها بأن تحيط الكلاب بالفريسة حتى لو كانت من الجاموس الوحشي أو الأسود وتستفزها، وفي ذات الوقت تقوم الطيور بالالتفاف في حركة معينة فوق الفريسة لبث الرعب فيها وشغلها. وينتهي الأمر بأن تجد الفريسة نفسها قد وقعت في فخ كبير ومحكم وسط نباح الكلاب المرتفع وأصوات الطيور المدوية. وسرعان ما تصاب الفريسة بالصمم جراء هذا الضجيج وتفقد توازنها وتدور حول نفسها داخل هذا الفخ. وحينئذ يتقدم الخان ممتطيًا فيلاً ويقذف بخمسة رماح على الحيوانات المحاصرة وكذلك الحال بالنسبة لمعاونيه الذين يدفع كل منهم بخمسة رماح أيضًا. وعندما تنفذ الرماح من جعبتها، يصيح الخان ويأمر بفض الطوق من حول الفرائس طالبًا الرحمة بهم، ويتم إطلاق سراح ما سلم منها وحصر الفرائس التي وقعت في الصيد والتعرف على أصحاب الرماح التي نالت من الفرائس.[١] وفي الواقع ففي عقد مثل حلقات الصيد هذه ما هو إلا تطبيق للالتزامات التي نص عليها الدستور المغولي ياسًا بضرورة إقامة المغول لحلقات الصيد باعتبارها تدريبًا على أساليب القتال. إذ كان تدريب الجيش المغولي يتم بالتعامل مع الطبيعة؛ فكل جندي يقوم بتدريب نفسه في وقت السلم عمليًا وذلك من خلال عمليات صيد الحيوانات والطيور والأسماك. فالمغولي راعٍ في وقت السلم وجندي في وقت الحرب[٢] . وبالفعل فوصف أودوريك يؤكد على ذلك حيث التزم الخان

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 190.

(٢) القلقشندي: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٢٥،٤٢٦؛ محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص ٣٧.

Wittfogel. K.A., and Chia-Shêng, Fêng, Op. Cit., p.119.=

ومعاونوه وحرسه باستخدام أعداد معينة من الرماح وكأنها مباراة فى أثناء الرماية، إذ تم مقارنتها بعدد ما وقع من إصابات للأهداف من الفرائس، وفى ذلك ما يثبت أنه كانت تعقد مباريات تهدف إلى تنمية المهارة القتالية.

تعرض المبشر كذلك لأحد الجوانب الاجتماعية فى المجتمع المغولى فى الصين ألا وهى الأعياد. ويلاحظ ارتباط أغلبها بشخص الخان إذ كان يحتفل فى العام الواحد بأربع مناسبات أهمها: يوم مولده Nativitatis ويوم تتويجه Circumcisionis، بل تسجل إحدى الدراسات المتخصصة وجود عيد لذكرى جنكيز خان وتضيف أن يوم مولد الذى يتولى الخانية يعد أفضل هذه الأعياد، كما أكدت على أن عيد التتويج كانت له أصول قبلية امتزجت بالتقاليد الصينية منذ قرون خلت[1]. ثم رسم أودوريك صورة حلية لهذه الاحتفالات، وفيها وضع المؤرخين (لعل المقصود بهم مدونو الأحداث) فى مكانة متميزة إذ وصفهم بأنهم سادة الأرض، فى حين وضع كل منهم على رأسه تاجًا من الذهب. ثم أوضح أنه بينما يجلس الخان على عرشه فإن السادة يجلسون كُل فى مكانه وفقًا لدرجته الاجتماعية ونبالته، ويرتدى كل منهم حزامًا تم صنعه من الذهب وحلة مختلفة عن التى يرتديها السيد الآخر، ويحمل الواحد منهم حقيبة مصنوعة من العاج ويصطف هؤلاء فى صمت وبجوارهم الحكماء والفلاسفة[2]

=ويضيف المرجع الأخير أن الحياة البدوية للمغول كانت تعتمد فى الأساس على حرفة الصيد، وكان الخان وكذلك حكام المقاطعات يهتمون بإقامة حلقات صيد رسمية نظرًا لأهميتها الاقتصادية والعسكرية. وتعد لحوم الحيوانات هى الغذاء الأساسى للجيش، وكانت الجبال هى أفضل المناطق التى تُختار لإقامة تلك الحلقات. وإضافة إلى ما ذكر أعلاه كانت الغزلان والدببة والنمور والثعالب هى أبرز ما يستهدفه الخان من الحيوانات خلال الصيد.

(1) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 190; Wittfogel. K.A., and Chia-Shêng, Fêng, Op. Cit., pp. 42, 223.

(2) ليس من المعروف لدى الباحث ما يقصده أودوريك بفئة الفلاسفة هذه، لعلهم الشيوخ أو علماء القصر، إذ من الثابت أن المغول نشطوا كثيرًا فى دفع التقدم الإنسانى فاهتموا بالعلم ولاسيما علوم الفلك والنجوم والطب. انظر : بدر الدين حى الصينى: المرجع السابق، ص ٩٣.

الذين أنيط إليهم مهمة مراقبة الساعة، وحين يأتى الموعد المحدد وفقًا لإشارة معينة يصيح أحدهم قائلاً: «علينا أن ننحنى أمام سيدنا الإمبراطور» وفور سماع هذه العبارة يخلع الجميع تيجانهم ويجثون سُجَّدًا وقد لصقوا رؤسهم بالأرض. ثم تعلو صيحة أخرى «انهضوا جميعًا»! وعلى الفور يلبون الأمر. وتكرور الصيحة بأمر جديد «كل منكم يضع إصبعه فى أذنه» وعلى الفور يستجيب الجميع للأمر، وبأمر آخر ينزعون أصابعهم. وفضلاً عن ذلك فهناك العديد من المواقف الشبيهة تمارس بغرض إظهار الولاء والاحترام للخان الأعظم فى ظل رقابة مشددة من مجموعة كبيرة من الرجال أغلبهم كانوا من الموظفين وقليلهم من المؤرخين أو الكتبة. وفى حالة وقوع أى تقاعس أو إهمال من سيد ما فإنه يقع تحت طائلة العقاب الشديد[1] وما من شك أن هذه التقاليد الرسمية تؤكد على ما عُرف عن المغول جميعًا بطاعتهم العمياء لقوادهم تمشيًا مع الحياة العسكرية التى نشأوا عليها وأصبحت طابعًا فى حياتهم اليومية.[2]

وبعد إقامة هذه المراسم تبدأ وقائع الحفل. وطبقًا للعادات المغولية يعلن عن الاحتفال بإيقاد النيران فى العراء، تلك العادة التى تلاشت واكتفوا فقط بإضرام النار فى أخشاب موضوعة فى محرقة[3]. ولم يشر أودوريك إلى هذا الطقس إذ من الواضح أنه اهتم فقط بما يحدث داخل القصر، فأورد أن الاحتفال كان يبدأ بطلب من الفريق الذى دعاهم بالفلاسفة بقولهم: «قدموا لإمبراطورنا احتفالاً رائعًا» وحينئذ يشرع المطربون والفنانون العزف على أدوات الموسيقى بأصوات مرتفعة قد تصيب الحضور بالصمم. وفى وسط هذا الضجيج يرتفع صوت يطلب السكوت التام، وعلى الفور تصمت الآلات وتتوقف الأغانى، وكان ذلك إيذانًا بدخول أهل الخان وقد امتطوا خيولاً بيضاء، وعلى الفور ينبرى موظف تم تخصيصه ليقوم بمهمة الإعلان عن تقديم

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 190-191

(٢) أحمد مختار العبادى: قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، بيروت ١٩٦٩م، ص ١٤٦-١٤٧؛ محمود سعيد عمران، المرجع السابق ص ٣٥.

(٣) Wittfogel. K.A., and Chia-Shêng, Fêng, Op. Cit., p 223.

أحد أفراد أسرة الخان عدد مائة فرس أبيض هدية إليه، وبالفعل يُساق عدد كبير من الخيول نحوه. وهنا يأتى دور رجال الدين إذ يتقدم بعض من كهنة البوذية الذين برحوا معابدهم بغرض الانخراط فى الاحتفال إلى الخان ليقدموا مباركتهم، وكذلك الحال بالنسبة للرهبان المسيحيين.(١)

ثم يستأنف شاهد العيان تسجيل ذكرياته عن حفل الخان المغولى فانتقل إلى جانب آخر، فأخبرنا بالدور الذى لعبه أهل الفن والسحر؛ إذ قدمت المغنيات أغانى فى غاية العذوبة، أما مروضوا الحيوانات فقد أتوا بالأسود المدربة وجعلوها تنحنى أمام الخان فى حين قام السحرة بتقديم ألوان مختلفة من فنونهم، ومن ذلك أنهم أمروا كؤسًا ذهبية مليئة بالخمر بالانتقال إلى أفواه معاونى الخان، فتطايرت فى الجو إلى شاربيها(٢). والواضح أن أهل الصين قد برعوا بالفعل منذ أمد فى مسائل الفنون والسحر ويؤكد ذلك كل من ماركو بولو والهمذانى وابن بطوطة الذى أشار إليهم بالمشعوذين، فإن ماركو بولو بين أنهم كانوا يشكلون طائفة مميزة تخصهم عرفت باسم باكسى Bacsi وتُركت لهم حرية عمل كل ما يريدون فعله، ولهم أسلوب مميز فى الحياة يجنح نحو البهيمية، وهم يدَّعون أن أعمالهم تتم بتأييد من الإله، وكان قوبيلاى خان قد قرَّب مجموعة منهم وعينهم فى خدمته داخل القصر وكثيرًا ما أظهروا ألوانًا من السحر أمامه مشابهة لتلك التى رآها أودوريك. وكان الخان قانعًا بأن لديهم القدرة على حماية قصره من العواصف والأمطار، ومنذ ذلك الوقت، ظل لهؤلاء وضعهم المميز داخل القصر حتى أنهم كثيرًا ما قدموا النصائح والتحذيرات إلى الخان. ويؤكد الهمذانى أيضًا على الحظوة التى نالوها خلال عهد هذا الخان وخلفائه(٣). وتضيف إحدى

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 192.

(٢) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp.191- 192.

(٣) Marco Polo, Op. Cit., pp. 107-109.

الهمذانى: المصدر السابق، م٢، ج١، ص ٢٤٣، ج٢، ص٢٩٨. وقد دهش ابن بطوطة لقدرة السحرة على أداء ألاعيبهم، وأورد قصة مفادها أن أحدهم بلغ من المهارة حدًا تمكن بعده من-

الدراسات المتخصصة إلى ذلك أنهم ادعوا قدرتهم على تسخير الأرواح الشريرة مع بدء كل عام إما بغرض ممارسة فنون السحر، أو لمواجهة القوات المعادية، ويتم ذلك بقرع الأجراس وبرمى الرماح وسط ضجيج الغناء والصراخ(١) . وهكذا يتضح الدافع الذى جعل من السحرة فئة لها ثقلها داخل القصر حتى أن السحر أصبح عنصرًا أساسيًا فى الاحتفالات التى تقام داخله هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تجتمع لدى الباحث المزيد من الشواهد التى تبرهن على صدق أودوريك فيما رواه.

على هذا النحو، يلاحظ أن أودوريك أولى قصر الخان وما يحدث داخله من طقوس فى أثناء الاحتفالات اهتمامًا كبيرًا، لكن من الواضح أن مرضه قد حال دون أن يملى بعض التفاصيل الأخرى،ومن ذلك أنه لم يحدد المناسبة التى أقيم بسببها هذا الاحتفال الذى وصفه ويتبين من سرده للوقائع أنه كان بمناسبة أحد العيدين الأكثر أهمية لدى المغول وفقًا لدرجة الاهتمام الواضحة من خلال الوصف. ونظرًا لأن طقوس الاحتفال بعيد التتويج تشتمل على عادات تختلف(٢) عن ماعرضه أودوريك من طقوس وعادات، فيعتقد فى أن الاحتفال الذى حضره كان بمناسبة مولد الخان.

أما فيما يختص بالاتجاه الثالث المنصب على إبراز جهود أودوريك التبشيرية فى كامباليت فهو يخبرنا أنه مكث ثلاث سنوات هناك، حرص خلالها أن يحضر مع زملائه الرهبان الاحتفالات التى تقام فى قصر الخان زاعمًا أنه كان يتم تخصيص مكان

-إقناع الرائى بقدرته على تمزيق صبى وجمع أشلائه من جديد. انظر: رحلة ابن بطوطة، ص ٦٤١. والشكل رقم (١) المبين لهذه الحادثة فى آخر البحث.

(١) Wittfogel. K.A., and Chia-Shêng, Fêng., Op. Cit., p. 216

(٢) Wittfogel. K.A., and Chia-Shêng, Fêng., Op. Cit., p. 223.

ويضيف أن الاحتفالات بعيد التتويج تتميز بطقوس ذات طابع قبلى مثل: يمتطى الخان فرسًا ويقفز به ويسقط من عليه أرضًا فيتم تغطيته بغطاء وكأنه قد تم أسره، وذلك إشارة إلى أنه تولى المنصب، وفى اليوم التالى وفى طقس آخر، يقوم رجال الدولة بطرح بساط يجلس عليه الخان، ويتم رفعه بالبساط إلى أعلى، وهذه العادة انتشرت فى مجتمعات عديدة داخل آسيا وكانت ذات أصول تركية واتبعت حين توج جنكيز خان.

لهم فيه وأنهم كانت لهم السطوة على القادة والحراس، كما اعتادوا على تقديم البركات للخان ذاته. ولكى نتكشف أبعاد تلك العلاقة التى ربطت الخان والحركة التبشيرية ممثلة فى أودوريك تبرز أمامنا هذه الرواية التى وردت على لسانه: «حينما تم تحديد اليوم الذى سيعود فيه الإمبراطور إلى كامباليت... خرجت أنا فى رفقة أسقفنا وبعض الإخوة [الرهبان] غير الراشدين لاستقباله على بعد مسيرة يومين من المدينة، وعندما اقتربنا منه، قمت بتثبيت الصليب على عصا طويلة حتى يكون على رؤوس الأشهاد، كما أمسكت بيدى مبخرة وما لبثنا نترنم المجد للرب Veni Creator، وبمجرد أن سمعنا الإمبراطور ... طلب أن يؤتى بنا إلى حضرته ... وعندما رأى الصليب فى عليائه ونحن قادمون إليه، قام على الفور بخلع التاج من على رأسه ... فانحنى أمام الصليب...» وحينئذ ذكر أودوريك أنه قام فى رفقة الأسقف بتبخير الإمبراطور وتقديم البركات، وقدمت المجموعة سلة فاكهة على سبيل الهدية متبعين العادة فى ضرورة تقديم شيء ما للإمبراطور حين لقائه فأكل ثمرة منها واحتفظ بأخرى، وطلب منا التراجع خشية زحف الخيول وجحافل الناس «فامتزجنا بمجموعة من الرحال ذوى النفوذ الذين كان الرهبان قد أدخلوهم فى العقيدة المسيحية، وقدمنا لهم من فاكهتنا التى تلقوها بسعادة غامرة وكأنها عطية قيمة»[١]

وثمة بعض الملاحظات الجديرة بالذكر، فقد كانت سنوات إقامة أودوريك فى الصين كفيلة بأن يدرك الكثير من التقاليد والعادات السائدة فى المجتمع الصينى المصطبغ بالصبغة المغولية فالبرغم من كون الثوابت فى هذا الشأن تقضى بأن تقديم البركات للخان يعد طقسًا دينيًا قاصرًا على كبار الكهنة البوذيين دون أصحاب الديانات الأخرى، فإن أودوريك ينسب إشراك الرهبان الكاثوليك فى هذ الفضل ولذا كان مبالغًا فى إبراز تعاطف الخان مع المسيحيين فى بلاده. أما فيما يتعلق بأمر تقديم الهدية؛ فالمعروف أن تبادل الهدايا يعد رمزًا للصداقة على جميع المستويات، ووفقًا لما عهده هذا العصر من الناحية الرسمية كانت الهدايا تتمثل فى تبادل النفائس والملابس

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 199.

والخيول وبعض الأدوات الأخرى.(١) وعليه نجد أن بعض ثمار الفاكهة المقدمة للخان لا تعدو أن تكون رمزًا للصداقة مع المسيحيين. ولكن على مستوى بعض رجال الدين البسطاء الذين يترأسهم مجرد أسقف، وكان أودوريك قد أشار إلى هذا الأسقف ضمن الفريق الفرنسيسكانى وهذا بدوره يدفع إلى ملاحظة أخرى، إذ لم يأت ذكرًا إلى وجود مطران كامباليت جون دو مون كورفن ضمن أعضاء الفريق، الأمر الذى تمخض عنه بروز أودوريك ذاته من أكبر رجالات الكنيسة الكاثوليكية فى العاصمة ويفسر رمزية الهدية. وأخيرًا ففى هذه الإشارات على هذا النحو ما يدلل على أن كامباليت كانت تضم تنظيمًا كنسيًا واضح المعالم فى ذلك الوقت يقوم على أساس العقيدة الكاثوليكية الفرنسيسكانية، وقد جاءت قوتها على حساب الكنيسة النسطورية.

فى ضوء هذه المعلومات الموحية بأن الخان كان قانعًا بالمسيحية اندفع البعض للتساؤل هل تحول هذا الخان إلى اعتناق هذه الديانة؟(٢) وفى حقيقة الأمر، لم يذكر أودوريك ذلك، كما لم يثبت ذلك تاريخيًا، إذ لم يشر أى من المصادر المتاحة إلى هذا الأمر، وفى هذا الخصوص خرج أحد الباحثين بعد دراسة أجراها على خانات فارس البوذيين أيضًا بنتيجة خلص فيها إلى أن جهود المسيحيين فشلت فى تنصيرهم إلا أنها نجحت فى جعل الخانات الأول منهم يسيرون على سياسة العطف حيال رعاياهم المسيحيين بل أن أحد هؤلاء الخانات (وهو بايدو Baido– حكم خلال عام ١٢٩٥م.) كان يعلق صليبًا ضخمًا على عنقه ومع ذلك لا يكاد المؤرخون يجمعون على أن أحدًا من هؤلاء اعتنق المسيحية(٣) وإن كان ذلك الحكم قد أطلق على خانات فارس فإنه يشمل خانات الصين الذين لم يشهدوا ضغوطًا مسيحية بنفس القدر. وعليه يتبين أن خان كامباليت كان سعيدًا فقط بما أحاطه به رسل البابوية من احترام وتبجيل، غير أن هناك إشارات لدى المبشر يؤكد فيها على أن الكثير من السادة

(١) Wittfogel. K.A., and Chia-Shêng, Fêng, Op. Cit., p. 239, N. 9.

(٢) Marcellin de Civezza, Op. Cit., Vol. I, p. 293.

(٣) مصطفى طه بدر: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة ١٩٤٢م. ص ٩-١١.

والأتباع فى القصر تأثروا بالدعوة الفرنسيسكانية إذ قدر أودوريك أنهم بلغوا أربعمائة رجل كانوا ضمن حراس الخان الذين بلغت أعدادهم تسعة آلاف من الحراس النبلاء كما ورد سالفًا فى حين لم يكن هناك سوى مسلم واحد من بين هؤلاء الحراس(١).
ويفهم من هذا التصنيف للحراس أنه لا يخلو من تعظيم زائد لوضع المسيحيين ومكانتهم فى قصر الخان، فهم فى نظر المبشر أهل للثقة إلى الحد الذى اتخذت السلطة منهم حراسًا، شكلوا نسبة بارزة من حرس الخان، وفى ذات الوقت ففى تحديد عدد الحراس المسلمين برجل واحد يعد فى المقابل تقليلاً من شأنهم فى هذه الموازنة.

وفى نظرة تقييمية لمدى صحة ما ساقه أودوريك من معلومات عند تصنيفه لعقيدة أفراد حرس الخان وبغرض الكشف عن وضع المسلمين بصفة عامة، فيجدر بالذكر أن كامباليت وحدها كانت تضم إبان العصر المغولى ستة عشر مسجدًا قدر اتساع أحدها ليضم مائة ألف مصلٍ. وبلغت أعداد المسلمين من الكبر إلى الحد الذى دعا أحد المؤرخين المسلمين المعاصرين إلى أن يذكر أنه تم تولية حكام مسلمين على ثمانية ولايات فى الصين فى هذا العهد، كما أن الوزيرين المسئولين عن المالية والجيش كانا مسلمين(٢). وبقى الإسلام مزدهرًا فى أرض الصين حتى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى/ السابع الهجرى بدليل أنه كان «فى كل مدينة من مدن الصين مدينة [حى] للمسلمين ينفردون بسكناها، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها، وهم معظمهم محترمون ... ولابد فى كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه، وقاضٍ يقضى بينهم»(٣) واستمر وضع المسلمين متميزًا فى

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 188.

(٢) الهمذانى: المصدر السابق، م٢، ج٢، ص ٢٧٧، ٢٨٤، ٢٩٥-٢٩٧. وقد أورد هذا المؤرخ المعاصر والمدقق اسم هذين الوزيرين وهما: شمس الدين الملقب بالسيد الأجل، وعلى يحيى الأيورغرى. ويفهم من عبارات الأب جوييل الواردة فى مقدمة كترمير لمصدر جامع التواريخ للهمذانى أن نفوذ المسلمين لم يقتصر على المجال السياسى بل ضرب أمثلة لعلماء وذوى جاه، انظر: جامع التواريخ، م٢، ج١، ص ١٢٤.

(٣) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦٣٠، ٦٣٥.

البلاد وقدرت أعداد المساجد بالآلاف تم تشييد ثلثها في الفترة بين عامي ١٣٥٠- ١٦٥٠م. و لم يتوقف انتشار الإسلام إلا بعد هذا التاريخ[١]. وبعد تقديم هذه النبذة عن مسلمي الصين يتأكد لنا ضرورة أخذ ما أورده أودوريك عن التوزيع العددى لمعتنقي الأديان في حوس الخان بمزيد من الحذر بعد أن بدا بوضوح تعصبه وميوله الدينية التي جاءت على حساب الحيدة والموضوعية فيما يختص بهذا الجانب بعينه.

وإضافة إلى الاتجاهات الثلاثة التي صنفت اعتمادًا على المادة التي قدمها مبشر هذه الإرسالية في أثناء تواجده في كامباليت، هناك بعض الملاحظات التي أدركها بنفسه. وقد عرض فيها لبعض النواحي الخاصة بالمجتمع الصيني بعامة، فضلاً عن الشذرات الجزئية للمجتمعات في المدن والبقاع التي مر بها ووردت بهذا البحث. فبينما وصف آنفًا أجسام أهل مدينة سونستالاى فقد أضاف أن الصينيين بعامة ذوى بشرة تميل إلى الصفرة بدرجاتها. كما أن الرجال غالبًا ما كانت لهم لحى طويلة.[٢] وكان ماركو بولو قد تعرض لوصف الشعب الصيني وذلك عند وصفه لأهالي مملكة إرجينول Erginul التي حدد موقعها في الجنوب الغربي حيث شرقي التبت ذاكرًا أنهم ميالون إلى البدانة كما أن أنوفهم صغيرة وشعرهم أسود بيد أن من رآهم ماركو في الغرب من الرجال كانوا بدون لحى وقد يكونوا ذوى لحية خفيفة[٣]. و لم يفت على المصادر الإسلامية وصف هذا الشعب فذكرت «أهل الصين أحسن الناس صورة ... قصار القدود، عظام الرءوس»[٤]. ومن ثم اتفقت المصادر الغربية والإسلامية إلى حد بعيد مع وصف أودوريك للشعب الصيني من الناحية السلالية إذ أبرزته بسماته التركية والمغولية.

---

[١] بدر الدين حي الصيني: المرجع السابق، ص ٢٨٩.

ويقدر أعداد المسلمين في الصين الشعبية حديثًا بنحو اثنين وسبعين مليون مسلم. انظر: محمد خميس الزوكة: آسيا، دراسة في الجغرافيا الإقليمية، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص ١٩٠.

[٢] Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p.183

[٣] Marco Polo, Op. Cit.,p. 99.

[٤] القزويني: المصدر السابق، ص ٥٣؛ راجع أيضًا : ابن الوردي:المصدر السابق، ج١، ص ٨٥.

كما كانت للعادات والتقاليد فى الصين الجنوبية نصيبًا فى كتاباته، فالرجال اعتادوا على إطلاق أظافر أيديهم معتقدين فى أنها رمز للنبالة، وخاصةً أظفر إصبع السبابة للحد الذى ينثنى بسبب طوله المبالغ فيه. أما النساء فكانت أقدامهن صغيرة الحجم وهى علامة من علامات الحسن والجمال، حتى أنه ظهرت عادة تقضى بربط أقدام الإناث برباط وهن لازلن فى المهد بغرض إيقاف نمو القدم[1]. وفى الواقع نجد رواية أودوريك قد تميزت بالوقوف على هذه الخصائص الدقيقة لجانب من العادات الصينية.

كذلك فقد لفتت نظره طريقة الأهالى فى الكتابة، فذكر أنهم كان لديهم أسلوبًا مميزًا إذ تقوم على أساس الكتابة الرأسية فهى تبدأ من أعلى إلى أسفل. وتفيد المخطوطات المكتوبة باللغة الصينية خلال القرن الرابع عشر الميلادى أنها بالفعل كانت بالشكل الذى صوره أودوريك[2]. أما أكثر الأشياء التى أثارت دهشته فهو استخدامهم للعملة الورقية، التى تعرف لديهم باسم باليس، فى كثير من معاملاتهم التجارية[3]. وقد تعددت الإشارات فى رواية المبشر التى تعرض فيها إلى استخدام هذه العملة على نطاق واسع فى البلاد التى مر بها.

وبعد الثلاثة أعوام التى أمضاها أودوريك فى كامباليت دون الاسترسال فى الحديث عن إنجازاته فيها وتحديدًا فى عام ١٣٢٨م، استأنف رحلته وجهوده التبشيرية فى أماكن أخرى بعد أن ترك الصين الحالية، حيث وصل مملكة دعاها كاولى Caoli (كوريا). وبعد رحلة خمسين يومًا سيرًا بلغ مملكة أخرى دعاها بريسيزوان Précézoan اعتاد ملوكها الزواج من بنات الخان الأعظم بغرض الحفاظ على أمنهم وعروشهم، كما كان زعماؤها الدينيون البوذيون يعرفون بلقب اللامات، وما لبث أن توقف فى

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 178,183.

(٢) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p.190, cf. also : Morgan, D., Op.Cit., p. 10

انظر الشكل رقم (٢) المبين لطريقة الكتابة الصينية فى القرن الرابع عشر الميلادى فى نهاية البحث.

(٣) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 180, 187, 190.

مملكة التبت التى كانت خاضعة لحكم الخان الأعظم، وفيها تحدث عن زيارته للعاصمة توتا Tota (لاسا Lassa) وعن جهوده التبشيرية والديانة البوذية السائدة هناك والعادات والتقاليد مستغرقًا بضع صفحات ثم بدأ رحلة العودة إلى وطنه خاتمًا إرساليته بهذا القول: «أقر أنا أودوريك دو فريول أمام الرب وأمام السيد المسيح بأن جميع الأشياء التى كتبت عنها إما أن تكون قد رأيتها بعينى وإما أن تكون تعرفت عليها من خلال أشخاص جديرين بالثقة،وأسجل هنا أننى رأيت أشياءً من المستحيل التصديق بها إذ ليست لها نظير فى بلادنا، ومن ثم لا يتقبلها سوى أولئك الناس الذين كانوا شهودًا لها فى تلك البلاد التى لا يعمرها الإيمان»(١) . وهكذا لم يعرفنا أودوريك بتفاصيل وقائع رحلة العودة، إلا أن المهتمين بالتأريخ للإرساليات التبشيرية الفرنسيسكانية أكدوا على أنه أبحر من البندقية، ثم انتقل سريعًا إلى مقرالبابا يوحنا الثانى والعشرين Jean XXII (١٣١٦- ١٣٣٤م.) فى مدينة أفينون Avignon حيث أبلغه بمدى الإنجازات التى حققتها الإرساليات التبشيرية بين الأمم المغولية حتى الصين وما بعدها من بلاد، ومن ناحية أخرى طلب منه أن يسمح له بحشد ما يزيد عن خمسين مبشرًا من ذوى الكفاءة استعدادًا للتوجه فى إرسالية جديدة إلى الشرق لنشر الدعوة المسيحية لكنه سرعان ما خر مريضًا وتوفى فى عام ١٣٣١م.(٢)

---

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 193-194, 196-199.

(٢) Marcellin deCivezza,Op. Cit., vol I, pp. 308-309.

خاتمـــة وتعقيـــب :

وبانتهاء استعراض وتحليل بل ونقد المادة التاريخية الحضارية فى كتابات المبشر الفرنسيسكانى أودوريك تمثل أمامنا بعض النتائج والحقائق، ويتصدر ذلك تقييم جهود المبشر أودوريك فى إنجاز مهمته التبشيرية؛ فمن الصعب تقييم هذا الدور بمعزل عن الدعوة الكاثوليكية التى قادتها البابوية لتنصير الشرق مستعينة بعدد كبير من الرهبان. ومن الثابت أن الحركة التبشيرية فشلت فى إقناع أيٍ من حكام المغول فى كل أنحاء آسيا باعتناق المسيحية. إذ كان تحقيق هدف التنصير أكبر من الإمكانات البشرية والمادية للرهبان الذين قاموا بتنفيذه. ومع ذلك فقد سجل بعض الرهبان نجاحًا محدودًا للغاية فى تنصير بعض البوذيين وتحويل بعض النساطرة إلى الكاثوليكية، ومن هؤلاء كان أودوريك الذى أكد فى عدة مواضع على أنه مارس التبشير خاصة فى سونستالاى وزيتون وأهامزان وفى كامباليت. وتضمن حديثه أسباب الفشل التى نجح فى إبرازها عندما أشار إلى عائق عدم معرفة لغة الصينيين، أما اللغة التى كان على دراية بها فهى الفارسية، لغة الأهالى والتجار المسلمين الذين كانوا من القوة وعظم الشأن بالقدر الذى لا يسمح بتغلغل المسيحية فيما بينهم.

وفى إطار الإلمام بالبعد الدينى فى رواية أودوريك، تبرز قصة شهداء تانا التى شهدت زيتون نهايتها بعد أن تكبد عناء نقل رفاتهم ودفنها هناك. ووافق هذا العمل دأبه على الانتهاء من تشييد دير كبير فى المدينة. ومن ناحية أخرى يفيد التقرير الذى سجله المبشر عن جهود الطائفة الفرنسيسكانية فى التبشير داخل العاصمة كامباليت أنهم أظهروا نشاطًا مركزًا على شخص الخان بغية استمالته إليهم، ولكنه اكتفى بإبداء عطفه واحترامه للمسيحية والصليب حتى كاد أودوريك يعده من المسيحيين. وبدت كتاباته عنه وقد غلب عليها المبالغة فى تقييم وضع المسيحية كدين بين أفراد السلطة الحاكمة.

والحديث عن التبشير بين طوائف الشعب الصينى والسلطة المغولية يقودنا إلى التعرف على ملامح الجانب الاجتماعى من خلال ما أورده أودوريك، فأصبح من الممكن إبراز التركيب الاجتماعى هناك فى عصره، وذلك اعتمادًا على ما ساقه من معلومات نتيجة الاحتكاك؛ ومن ذلك نجد طائفة المسلمين الذين لم يذكرهم بالكفرة كما اعتاد أصحاب المصادر الغربية فى عصره، وأثبت لنا أن لهم طوائف كبيرة موزعة على العديد من المدن حيث تحدث إليهم فى سونستالاى وسعى إلى التبشير بينهم وداخل مساجدهم فى كل من زيتون وأهامزان، غير أنه تجنب الحديث عنهم فى بقية المدن. أما فى العاصمة كامباليت فقد حاول أن يقلل من شأنهم ومن واقع أعدادهم بدليل أنه ادعى بأن لم يكن من بين حراس الخان النبلاء الذين قدر عددهم بتسعة آلاف حارس إلا مسلم واحد، وكانت المصادر الأخرى والإسلامية منها بخاصة قد أكدت أن مسلمى الصين فى الفترة المعاصرة نشطوا بالتجارة وشكلوا مجتمعات ومدن كاملة، كما أن العاصمة ضمت عددًا من المساجد تشهد بكثرتهم.

أما عن طائفة المسيحيين، فعادة ما كان المبشر يبرزهم فى كتاباته بقصد الرفع من شأنهم، ففى سونستالاى أبدى اندهاشه لوجود جماعة منهم، وحرص على أن يقيم علاقة معهم وبالفعل أيدت المصادر الأخرى حقيقة وجود مسيحيين بشكل محدود فى تلك الجهة، بدليل وجود كنيسة فيها. وحين رأى فى أهامزان حادثة جمع الحيوانات للطعام بغرض إثبات عقيدة تناسخ الأرواح، أظهر اعتقاده فى أن الأرواح الطيبة هى لرهبان مسيحيين، كما أبدى حرصه على الحديث عن كل ما هو مسيحى سواء أكانوا رهبانًا أم قساوسة أم كنائس وأبنية رآها فى أثناء الرحلة، وبالغ أحيانًا فى تقدير أعدادهم ومثال ذلك حين ذكر أنهم بلغوا أربعمائة من بين حراس الخان الخصوصيين.

ولما كانت العقيدة البوذية ومعتنقيها يمثلان القاعدة الرئيسية للمجتمع في الصين، فلذا كان من الطبيعي أن يأتي ذكر لهم حين الانتقال من بلد إلى آخر، ولم يتردد المبشر في إقامة علاقات معهم، فلم لا طالما كان هدفه التبشير فيما بينهم؛ إذ كانت أولى خطبه التبشيرية أمامهم قد ألقاها في مدينة سونستالاي حيث شعر بالألم والصدمة حين علم بأن الوثنية هي العقيدة السائدة في مجتمع هذه المدينة بل وباقي الصين الجنوبية. وأبدى المبشر دهشته من كثرة المعابد البوذية في زيتون حيث قدرها بثلاثة آلاف معبد تضم أحد عشر ألف صنمًا. وفي بقية المدن ومنها العاصمة كان الوثنيون وبالأحرى البوذيون هم الفئة الغالبة، ومما يشهد على ذلك تلك الطقوس والعادات البوذية التي اقترنت بالسلطة الحاكمة خلال احتفالاتهم وأنشطتهم التقليدية. وبصفة عامة، فنظرة المبشر الفرنسيسكاني إلى الطوائف الدينية والتركيب الاجتماعي للصين في عهده كانت واقعية إلى حد ما وتتمشى مع ما ورد في المصادر المعاصرة، وإذا ما اتجه إلى المغالاة في تقييمه فكان بدافع من غيرته الدينية.

ولايكاد صاحب الرحلة يقوم بزيارة مدينة صينية ما إلا وتعرض إلى بعض من شئون أهلها الاجتماعية، ومن ذلك تسجيله لظاهرة ارتفاع المستوى المعيشي لدى سكان سونستالاي إلى الحد الذي لا يوجد بينهم متسول واحد، وجاءت المصادر الأخرى لتؤكد هذه الظاهرة. بيد أن وصف الحياة الاجتماعية للأثرياء بل والخان حظيت منه باهتمام أوضح فأفاض في الحديث عن الحياة اليومية لثرى في الصين الجنوبية كان يقيم في قصره الفخم؛ فتناول مأكله ومشربه وطريقة خدمته، أما فيما يتعلق بالخان فقد تعرض إلى ظاهرة اتخاذ المشاتي والمصايف والمجلس الذي يعقده في القصر والموكب الخاص به وإقامة المآدب والحفلات في المناسبات التي كان يحتفل فيها أسلافه وحضوره حلقات الصيد وارتفاع شأن السحرة والمشعوذين في المجتمع الصيني. وهذه الجوانب مستها المصادر والمراجع بشكل متفاوت في

الاهتمام بها. بيد أنه يمكن اعتبارها مكملة أو موضحة لما أتى به أودوريك من معلومات.

وكان للمرأة وضعها داخل المجتمع الصينى ذكر فى الرحلة فى أكثر من موضع، فقد وصفها أودوريك بالحُسن، كما تعرض إلى بعض العادات والتقاليد المتعلقة بتمييز المتزوجات منهن عن غير المتزوجات، وفضلاً عن ذلك تعرض لدور النساء فى إدخال البهجة على قلوب الأثرياء داخل القصور بما كن يؤدونه من ألوان الغناء، كما أشار إلى مكان ابنة الخان والوصيفات فى مجلس القصر وإلى ثياب النساء وحليهن وزينتهن، وكذلك إلى تشكيل الموكب الخاص بزوجة الخان وتشابهه مع موكب الخان ذاته، إضافة إلى الإشارة إلى جانب من الأساليب المتبعة للتجميل مثل اعتيادهن على ربط الأقدام بغرض التحكم فى حجمها. وهذا كله يشهد على أن المرأة الصينية كانت فاعلة وتحتل مكانة عالية، كما كانت تتصف بالتحرر الذى لم يفته التنويه إليه.

وبالرغم من أن هدف الرحلة أساسًا هو التبشير، وبالرغم من بساطة الراهب نجد أودوريك قد مس النواحى الإدارية التى تعرف عليها فى الصين بدقة؛ ومنها تسجيله لحقيقة أن موظفى الموانى كانوا رجالاً عسكريين من جيش الخان المغولى، كما هو الحال فى مينائى سونستالاى وزيتون. كذلك وقف المبشر بشكل صحيح على عدد الولايات التى شكلت دولة الخان فى الصين حين ذكر أنها وقت رحلته بلغت اثنتى عشرة ولاية متفقًا مع ما ورد بالمصادر الإسلامية فى هذا الشأن، ومن ناحية أخرى تمكن من التعرف على نظام نقل الخبر من أطراف الدولة إلى مركزها الإدارىفى العاصمة حيث قصر الخان، فتعرض بدقة إلى ما كان يقوم به ديوان البريد من خدمة سريعة تعكس جانبًا حضاريًا بارزًا فى المجتمع الصينى على عهد أسرة يوان.

أما فى الجانب الاقتصادى؛ فقد تضمنت الرحلة معلومات لها أهميتها عما يتعلق بهذا الخصوص، بالرغم من أن هذا الشأن خارج عن دائرة الاهتمامات الدينية لصاحبها؛ ففى سونستالاى تخلل الأسواق وانبهر بضخامة الطيور الداجنة مقارنًا إياها بما فى بلاده، كما لاحظ انخفاض أسعار بعض السلع مثل الزنجبيل وتعرف على سلع غريبة عليه مشيدًا بانخفاض الأسعار ورواج التجارة وتعدد الحرف واتقان الصنعة متفقًا مع ما ورد فى المصادر الإسلامية فى هذا الخصوص، الأمر الذى جعله يشهد على ارتفاع المستوى المعيشى فى مجتمع الصين المغولى. كذلك تناول المبشر فى سرده لذكرياته أساليب أهل الصين المتميزة فى مجال الانتفاع بلحوم الثعابين كطعام، وطرقهم فى صيد الأسماك. ومن ناحية ثالثة نلحظ إبرازه أهمية محصول الأرز فى هذه البلاد حتى أصبح يقاس ثراء الأغنياء بحجم ما يمتلكونه منه، وتعرف على بعض المنتجات التى تستخلص من هذا المحصول الشعبى، وتعرف على الضرائب وحيل الأهالى فى مدينة أهامزان. وفى مدينة يمزاى نبهنا إلى أهمية الملح كمنتج له عوائده الضخمة، وتعرض فى مواضع مختلفة إلى العملة الورقية باليس ووازنها بعملة الفلورن الفلورنسية، كما تعرض إلى أنواع الأطعمة ونظام المطاعم. وأخيرًا لم يفت عليه أن يشير إلى الحرير وصناعته ومركز تسويقه حيث مدينة سنزيماتو، وبذلك وفق أودوريك فى إلقاء بعض الضوء على عصب اقتصاديات الصين المغولية.

وينبغى فى المجال الاقتصادى أيضًا التأكيد على ما يتعلق بكل من التجارة والعملة المستخدمة؛ إذ يلاحظ أن أودوريك مس هذين الجانبين فى مواضع مختلفة نظرًا لحيويتهما، وبذلك مكننا من الوقوف على ثمرة فترة السلام المغولى داخل الصين؛ فمن ناحية تعرض إلى سوق سونستالاى الرائج بالسلع، وسوق سنزيماتو المتخصص فى تجارة الحرير ومنتجاته، ومن ناحية أخرى أشار إلى الحرص على تمهيد الطرق بشكل أدى إلى وجود شبكة طرق آمنة ومخدومة إلى حد كبير، كما نجده

بدا شاهدًا للعيان على الملاحة النهرية النشيطة للسفن فى نهرى يانج - تسى وهوانج-هو وعلى دور الموانى النهرية والبحرية فى حركة التجارة الكثيفة. وقد انعكس هذا النشاط التجارى فيما شهدته هذه البلاد من مرونة فى التعامل التجارى بفضل استخدام العملات الورقية، وفى هذا الصدد قدم أودوريك مادة مكملة لما أتى به ماركو بولو من قبل، وسابقةً على ما جاء به ابن بطوطة من بعد.

وفى مجال آخر تناولت رحلة أودوريك بعض المظاهر العمرانية بالحديث؛ ومنها أنها اهتمت بتقدير مساحات بعض المدن ومدى ما وصل إليه العمران فيها، ومنها مدينة أهامزان التى أقيمت على أرض سهلية فكانت أجمل وأضخم مدن العالم أجمع، فقدر طولها بنحو أربعين ميلاً ربطت الجداول المائية بين أطرافها المترامية. وتضمن الوصف تخطيط المدينة وانتظام إقامة المدن الاثنتى عشرة المحيطة بها وإقامة الطرق الميسورة الاستخدام التى تربط هذه المدن. وحين التعرض لوصف مدينة شيلفو ذُكرت على أنها من المدن الضخمة وقُدرت مساحتها بأربعين ميلاً، أما مدينة يمزاى التى هى بمثابة بوابة الصين الشمالية كما يستشف مما ذكره المبشر، فقد لفت نظره فيها مطاعمها الفاخرة بل وكنائسها النسطورية الثلاث إضافة إلى دير للرهبان الفرنسيسكان، وفى الوقت ذاته لم تشغل مدن مونزيو، لونكوى، سنزيماتو حيزًا مهمًا فى كتاباته عدا أنه أشار إلى وجود سوق تجارى فى المدينة الأخيرة. بيد أن وصف القصور يعد من أهم ما قدمه المبشر من مادة عمرانية لتضمنها تفاصيل فنية وخاصة فيما يختص بقصر الخان المغولى فى كامباليت.

شدت مهارة أهل الصين فى بناء الجسور والبوابات فى العديد من المدن انتباه الراهب الفرنسيسكانى، فتحدث عنها. ومما سجله أن مدينة أهامزان احتوت على اثنى عشر ألف جسرًا حجريًا، إضافة إلى اثنتى عشرة بوابة، كما ضمت شيلفو عدد ثلاثمائة وستين جسرًا تولى حمايتها حراس حكوميون وأحاطت الأسوار بالمدينة. غير أن العاصمة كامباليت حازت على اهتمام أوضح من قبل المبشر فى هذا المجال،

إذ تعرض إلى أسوارها والبوابات التى تخللتها التى حصر عددها فى اثنتى عشر بوابة، حدد موقع بعضها.

وإضافة إلى ما مدنا به أودوريك من مادة حضارية مهمة، نجح أيضًا فى تقديم مادة جغرافية ارتكن كثير منها إلى الواقع؛ وعلى سبيل المثال وفيما يختص بالجغرافيا الطبيعية وصفه للموانى الساحلية وتفسيره لجودة استخدامها مرافئ لرسو السفن وذلك بحكم عمق المجرى النهرى بما يُعرف بالخوانق، ومن المعلومات المتعلقة بالجغرافيا البشرية إشارته فى أكثر من موضع إلى الصفات السلالية للشعب الصينى المرتكز على العنصر التركى المغولى، إذ لفت نظره تدرج لون البشرة من الصفرة الداكنة إلى الفاتحة، وكذلك القامة المتوسطة وعظم حجم الرأس والشعر الأسود الداكن والأعين المستديرة المنحرفة التى عبر عنها ببساطة الرهبان حينما شبه أهل سونستالاى بالقطط، وإضافة إلى ذلك نجده وقد أدرك حقيقة الكثافة العالية للسكان فى ذات المدينة وغيرها. ومن المعلومات المختصة بالجغرافيا الاقتصادية أنه تنبه إلى أهمية محصول الأرز فى هذه البلاد، علاوة على تنويهه إلى أهمية الأنهار فى الملاحة والصيد.

وبالإضافة إلى ما ورد من معلومات متنوعة وقيمة برحلة أودوريك، ففى الواقع لم تخلُ رحلته من قصص وطرائف يصعب التصديق بها إلا أنها تكمل الصورة التى تكوِّن فكر هذا العصر ومن ذلك أنه أورد عن أهل الصين من البوذيين اعتقادهم فى وجود سرداب يصل بين معبد المعزل الروحى فى أهامزان والهند، بل قدم رواية عن رجل استحضر أرواحًا آدمية فى شكل حيوانات على أنها واقعة شاهدها بنفسه وذلك فى غمار تناوله لعقيدة تناسخ الأرواح فى البوذية. وعلاوة على ذلك تحدث عن تطاير كئوس الشراب إلى فم الخان وحاشيته على أنها لون من ألوان السحرالذى برع فيه فئة من الشعب الصينى.

وبعد هذه الدراسة المتفحصة لرواية مبشر فرنسيسكانى جاب بلادًا كثيرة من آسيا وما تلاها من تعقيب عمد إلى إلقاء نظرة شمولية متحررة من الترتيب التاريخى والجغرافى لمراحل إقامته فى الصين، يتبين لنا اتفاق الرواية مع غيرها من روايات رحالة ومؤرخين مسيحيين ومسلمين، وأخص بالذكر هنا ما يتعلق بكتابات التاجر البندقى ماركو بولو ثم الرحالة المغربى ابن بطوطة. ويجدر بالذكر فى هذا الموضع أن هناك رأى ذهب إلى أن كتابات ماركو بولو قد دخل عليها إضافات كثيرة ممن لحقوه من الكُتاب بفعل النساخ، وإذا ما سلمنا بصحة هذا الاتجاه فذلك يعطى لرواية أودوريك ثقلاً إضافيًا، وفى المقابل فإذا ما طرحنا هذا الرأى جانبًا واكتفينا بما تم ملاحظته من أن هناك اتفاق واضح بين أودوريك والذين سبقوه ولحقوه من الرحالة فذلك يؤكد فى حد ذاته على أن المادة التى ساقها تعد محققة ولها وزنها التاريخى ويجب أخذ معظمها فى الاعتبار.

ومما تقدم من دراسة لرحلة أودوريك دو بوردنون إلى بلاد الصين من مختلف جوانبها يمكن أن نستخلص أيضًا بعض الحقائق الإضافية؛ ففيما يتعلق بشخصية صاحب الرحلة يمكن تحديد ملامح منهجيته فى تغلب النزعة الدينية عليه بحيث رأى كثيرًا من الأشياء تسير مواكبة لما تمناه؛ كأن تكون شرائح عريضة من شعوب المنطقة معتنقة للديانة المسيحية، كذلك سعى إلى مقابلة خان المغول الذى لم يستثن من أنه محب للمسيحية ميال إليها.

وأخيرًا يمكن القول بأن رحلة أودوريك هى رحلة مسيحى أخلص لدينه وقدم الكثير بل أفنى سنوات طويلة من عمره بغرض التبشير والدعوة للمسيحية فى بلاد سادت فيها المعتقدات المخالفة فاستلزم منه الترحال من مكان إلى آخر ومن دير إلى آخر، فعانى مشقة الرحيل وقاسى برد الطبيعة القارس وحرها الخانق وتعرض لخطر المرض فى خاتمة رحلته و لم يثنه ذلك عن العودة ثانية إلى بلاده حيث إيطاليا للإعداد لرحلة ثالثة ولكن مرض الموت حال دون اتمام مشروعه، إلا أنه

دافعًا له من أجل إملاء رحلته فقدمت لنا معطيات مهمة تتمثل فى: دليل بأهم مناطق وجود المسيحيين فى الصين، ووصف لعادات الشعوب وتقاليدها هناك ومعجم لأهم المدن والبقاع والأبنية، وشرح للنظام الإدارى والحربى فى الدولة المغولية وللبلاط والحكم، وكثير من الصور الحية من واقع المجتمع الصينى فى مجال الاقتصاد والعمارة وغير ذلك من الجوانب الحضارية.

ومن ناحية أخرى فبالإضافة إلى هذه الأبعاد الخاصة بالمبشر أودوريك فى رحلته إلى الصين فهناك أبعاد عامة، ففى الجانب السياسى عكست مدى ما كان عليه النشاط التبشيرى الأوربى فى آسيا، والصين بخاصة بغرض استخدام العنصر المغولى فى محاربة المسلمين عربًا وأتراكًا الذين شكلوا عقبة فى وجه أطماع الأوربيين فى الشرق. كذلك لا يمكن إغفال البعد الاقتصادى ضمن الأهداف الأساسية من وراء تلك الرحلات التبشيرية، إذ دخلت فى إطار المحاولات الأوربية فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى لإقامة علاقات تجارية مباشرة مع بلاد الشرق الأقصى دون وساطة المماليك، حيث ظلت الأسواق فى الغرب فى حاجة ماسة إلى السلع الصينية وفى مقدمتها الحرير والتوابل والأحجار الكريمة وغيرها، وكان المماليك فى تلك الآونة قد تحكموا فى الطرق التجارية بين الغرب والشرق.

الملاحـــــق

الملحق الأول :

بيان بالبقاع الصينية التى أوردها أودوريك فى رحلته ويتضمن أسماء المدن والجبال والأنهار التى اشتملتها الرحلة حاليًا باللغة اللاتينية وما يعادلها فى النص المعتمد عليه، وكذلك الأشكال المختلفة فى نسخ أودوريك اللاتينية والإيطالية والإنجليزية(*) لذات المكان، إضافة إلى المسميات العربية كما وردت فى مصادرها. ولعل أهمية عرض هذا البيان تكمن فى حصر الرسوم المختلفة لاسم المكان الواحد بغية تسهيل الاستدلال عليها.

م	النوع	الاسم الحالى وما يعادله فى النص	الرسومات والمسميات الأخرى
١	إقليم ولاية	جنوبى الصين (مها – تشين) ولاية فوكين Manzi	Mantze, Manci, Mansiae, Mansi Mantzu, Manti, Mati, Manzy Man-tsu, Manza, Mangi, Mán-jin الصين الجنوبية، ماتشين، ماجين ماهاجين، ننجياس، ننكياس
٢	مدينة	كانتون Senstalay	Crustola, Censscolan, Censkalon Censcalan, Censcala, Conscala Cescallan, Censscanlan, Kalan Kouange-Tong, Cynkalan Sinkalan, Chinkalán, Sínkalán Cincalan كويلكى، تازيكان جين كلان، خانفو صينية الصين،صين الصين، صين كلان

(*) وردت هذه الأشكال المختلفة فى حواشى النص الذى نشره دومينيشيلى وقد ضاهى بينه وبين تسع نسخ لاتينية وخمس أخرى إيطالية دونت جميعًا فى فترات متباعدة ما بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر الميلاديين. وكذلك النص الإنجليزى الذى ترجمه هنرى يول عن النص الذى نشره كورديه.

م	النوع	الاسم الحالى وما يعادله فى النص	الرسوم والمسميات الأخرى
٣	مدينة	تيوشان – تشو–فو Zaycon	Saitan, Kaitam, Zayton, Zaiton Chaicham, Kaycon, Tche-Tung Zanton, Zaton, Cartan, Catan Caicham, Saiton, Zataition Zaytûn, Zeithum, Zayton الزيتون ، زا–ثيتون ، قيشيو
٤	مدينة	فو–تشو Sucho	Fozzo, Fuzo, Fucho, Suctio, Fuco Fuko, Fuc, Foro, Fulso, Foggia, Fulco, Fuju, Fluzo
٥	مدينة	هانج–تشو Aham sane	Chansay, Casai, Cansaiae Kasania, Chansanae, Campsay Chamsana, Cansare, Cansay Canzay, Guinzai, Ang-Cau-Fu Chonsai, Casaie, Catusaie Casay, Cansave,Canasaiâ حمدان، خينكساى، الخنسا، المدينة السماوية
٦	مدينة	كوى–سونج–فو (نانكين) – شيلفو	Chilemphe, Chilenfu, O Chilepho Chilopho,Chyleso, Chilenzo Chilenfo, Chisenzo, Chileraphe Chilenfe, Nanghin, Chilenso Nanking, Chilemfo, Chilense Chilensi لوقين، نونكين، نمكينك
٧	نهر	يانج – تسى Chanay	Dotalay, Thalay, Talay, Tulai Talai, Thanai, Piemaronni Chanay, Tanais, Tanay, Tannay Thanay, Thano, Talaig, Doltalay Ta-Kiang, Yang-Tze, Dalai آب حيا، ماء الحياة، السير، السرو

الرسوم والمسميات الأخرى	الاسم الحالى وما يعادله فى النص	النوع	م
Iamzai, Iamzay, Iamsai, Iancus Iamzu, Iantu, Iamsai, Sai, Ianzi Jamzai, Jangui, Ianni, Jancy Jancus, Ianzu, Jamsai, Yangui Yamzai, Jamathay, Jamathoy Iamceu, Iangio, Yang-chau-fu Iangsé, Yamsé, Yaneku, Janku Tamghâdj-Khan	يـانج-تشـو Iancy	مدينة	٨
Meuchu, Euza, Menzu, Mensy Mencu, Mantu, Mezu, Mencu	تشينج-شيان-فو Mency	مدينة	٩
Lencium, Benzin, Lenzin, Bencin Lensium, Lencym, Conzin, Lezin Laurenza, Launcj, Lencim, Lenzi Lingui, Lancerny, Lin-Ching Lanterny جنج-ساى، خنك-ساى	لينج-تشينج Lencui	مدينة	١٠
Caramorian, Tharamoram Caramoran, Caramoraz Tharamorin, Caramorion Charamorani, kara-muren Hwang-Ho قاراموران، قرة مران النهر الأسود، النهر الأصفر.	هوانج-هو Canamoran	نهر	١١
Sumacoto, Sucumat, Suzumatu Suzzumato, suzupato, Sumakoto Sucomago, sunzomaco	لين-تسين-تشو Sucumat	مدينة	١٢

م	النوع	الاسم الحالى وما يعادله فى النص	الرسوم والمسميات الأخرى
١٣	مدينة	بكين Cambalet	Cambalec, Cambalech, Cambalo Cabalec, Kanbalu, Cabul, Cambalù Cambaiet , Cabalec, Peking Ki-Yu-Chau, Nan-King, Yen-King Chung-Tu, Ta-Tu, Khan-Baliq Cambaluc, Pei-P'ing Fu, Ying-Tien خانبالق، خانقو، خان باليق، خان باليغ، سندابل، جونكدو، قيدو، دايدو، مدينة الإمبراطور، العاصمة الوسطى، العاصمة الكبرى
١٤	مدينة	شانجتو Sando	Shandu, Sandu, Zandu, Sandoy Sanday, Sandur, Sadu, Ciandu Chandu, Xanadu, Kai P'ing Fu Shang-Tu, Shangtu, Tchao-Naiman Soumé-hoton ساندو، زانادو، كيمين-فو
١٥	إقليم	شمال الصين Cathay	China الخطا، تشين، جذان، ختان، قرة خطاى

الملحق الثانى :

قائمة بأسماء خانات المغول فى الصين

أسرة يوان Yüan

١- قوبيلاى	Qubilai	(١٢٦٠ - ١٢٩٤م.)
٢- تيمور أولجاتيو	Temür Oljeitü	(١٢٩٤ - ١٣٠٧م.)
٣- هاى-شان	Hai-Shan	(١٣٠٧ - ١٣١١م.)
٤- أيورباروادا	Ayurbarwada	(١٣١١ - ١٣٢٠م.)
٥- شيدبالا	Shidebala	(١٣٢٠ - ١٣٢٣م.)
٦- يسون تيمور	Yesün Temür	(١٣٢٣ - ١٣٢٨م.)
٧- أراجيباج	Aragibag	(١٣٢٨م.)
٨- توك تيمور	Toq Temür	(١٣٢٨ - ١٣٢٩، فترة ثانية١٣٢٩-١٣٣٢م.)
٩- كوشيلا	Qoshila	(١٣٢٩م.)
١٠- إيرينجيبال	Irinjibal	(١٣٣٢م.)
١١- طوغان تيمور	Toghon Temür	(١٣٣٣ - ١٣٧٠م.)

قائمة بأهم المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع الأجنبية

- Chau Ju-Kua, On the Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries, ed. and trans. from the Chinese and Annotated by Friedrich Hirth and W.W. Rockhill, Amsterdam 1966.

- Marco Polo, The Travels of Marco Polo (The Venetian), Revised from Marsden's translation and edited with introduction by Manuel Komroff, U.S.A., New York 1930.

وقد أفاد الباحث من الحواشي الموجودة فى الترجمة العربية. انظر: ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمها للإنجليزية وليم مارسدن ونقلها للعربية عبد العزيز جاويد، القـاهرة ١٩٧٧م.

- Marignolli J., Account of his Mission, ed. & trans. by Henry Yule Cathay and the Way Thither, vol. III, London 1913.

- Odorico Da Pordenone, Sopra la Vita ei Viaggi del Beato Odorico Da Pordenone dell'Ordine de Minoriratto, ed. Domenichelli.T., La direzione del P. Marcellino de Givezzo, Prato 1881.

Odoric of Pordenone, Cathay and the Way Thither, vol II, Rev., ed. by H. Cordier, trans. by H. Yule, London 1913.

* * *

- Atiya A.S., The Crusade in the Later Middle Ages, London 1938.

- Barthold, W., Turkestan Down to the Mongol Invasion, trans. from the original Russian and Revised by the Author with the assistance of Gibb., H.A.R., Second Edition, London 1928.

- Golubovich, G., Biblioteca Bio - Bibliografica Della Terra Santa E Dell'Oriente Francescano, Tomo III, Collegio di S.Bonaventura, 1919, pp. 374 - 393.

- Kedar, Z. B., Crusade and Mission, European Approaches Toward the Muslims, U.S.A., New Jersey 1988.

- Mabel Craf Deering, The National Geographic Magazine, Washington, Juin 1927.

- Marcellin de Givezza, Histoire Universelle des Missions Franciscaines, Traduit de l'Italien par Victor Bernardin de Rouen., III vols, Paris, 1898.

- Matrod, H., Odoric De Pordenone (1265-1331), son «chemin de pérégrimation», Paris 1938.

- Morgan, D., The Mongols, U.S.A., 1996.

- Moule, A.C., Christians in China Before the Year 1550, London 1930.

- Nowell Charles, E., The Historical Preste. John, Speculum, vol 28, 1953, pp. 4-35.

- Oswold Siren, The Walls and Gates of Peking, London 1926.

- Panikkar, K.M., Asia and Western Dominance, A Survey of Vasco da Gama Epoch of Asian History 1498-1945, London 1959.

-Turner Ralph, the Great Cultural Traditions, The Foundations of Civilization, the Classical Empires, II Vols, New York-London 1941.

- Wittfogel, K.A. & Chia Shêng-Fêng, History of Chinese society, Liao (907- 1125), New York 1949.

- Wyngaert, Anastase von Den, O.F.M.: Jean de Montcorvin, O.F.M., Premier Evêque de Khanbaliq (Pe-King), 1247- 1328, Lille, France 1924.

ثانيًا: المصادر والمراجع العربية والمعربة

- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، كتب هوامشه وعلق عليه: طلال حرب، ط٢، بيروت ١٤١٣هـ./ ١٩٩٢م.

- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله: المسالك والممالك، ليدن، ١٣٠٩هـ./ ١٨٩٢م.

- ابن الفقيه الهمذانى، أبوعبد الله أحمد بن محمد بن اسحاق المعروف بابن الفقيه الهمذانى: كتاب البلدان، تحقيق: يوسف نهادى، بيروت ١٤١٦هـ./١٩٩٦م.

- ابن الفوطى البغدادى، كمال الدين عبد الرازق: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، تصحيح وتعليق مصطفى جواد، بغداد، ١٣٥١هـ.

- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن اسحاق المعروف بابن أبى يعقوب النديم: الفهرست، المطبعة الرحمانية، ١٣٤٨هـ.

- ابن الوردى، أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر: تتمة المختصر فى أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردى، ج١، ج٢، القاهرة ١٣٨٥هـ./ ١٩٦٨م.

- الإدريسى، أبو عبد الله محمد: نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمداين والآفاق، نشر: راثن موللر، ليدن ١٨٩١م.

- الإصطخرى، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسينى، القاهرة ١٩٦١م.

- جوانفيل: القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام. ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٨م.

- سليمان السيرافى، (سليمان التاجر السيرافى): سلسلة التواريخ ج١، نشرة لانجلس، ١٨١١م.

- القزوينى، أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محرز: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠م.

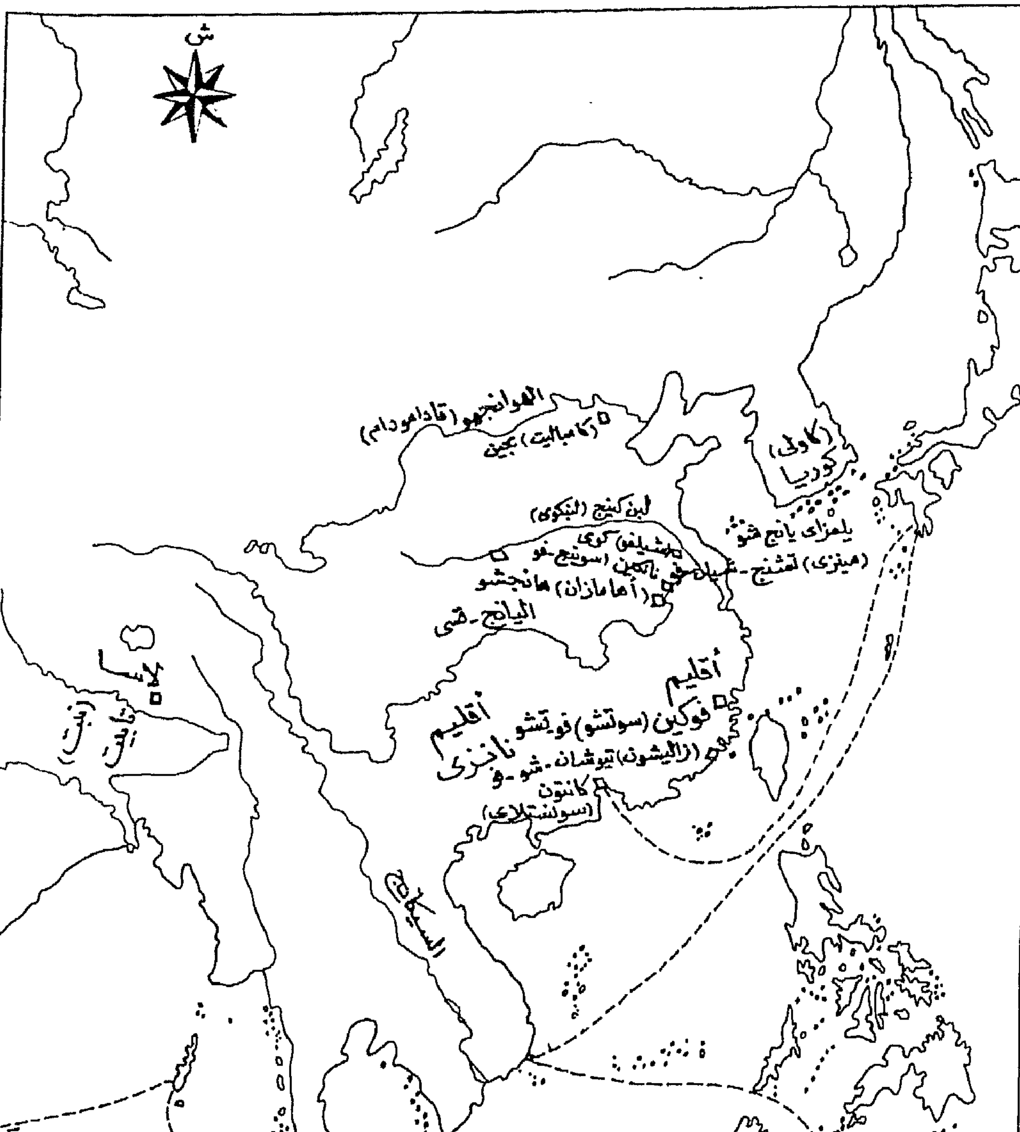
- القلقشندى (أبو العباس أحمد القلقشندى) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، جـ٤، القاهرة ١٣٣٦هـ.
- المسعودى، (أبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى): مروج الذهب ومعادن الجوهر: تحقيق محمد ولى الدين عبد الجميد، ٢جـ بيروت ١٣٨٦هـ./ ١٩٦٦م.
- الهمذانى (رشيد الدين فضل الله): جامع التواريخ: تاريخ المغول، الإيلخانيون، تاريخ هولاكو، نقله إلى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطى الصياد، مراجعة يحيى الخشاب، القاهرة م٢، جـ١، القاهرة ١٩٦٠م.، تاريخ خلفاء جنكيز خان بن أوكتاى قاآن إلى تيمور قاآن، نقله إلى العربية فؤاد عبد المعطى الصياد، مراجعة يحيى الخشاب، م٢، جـ٢، بيروت ١٩٨٣م.

* * *

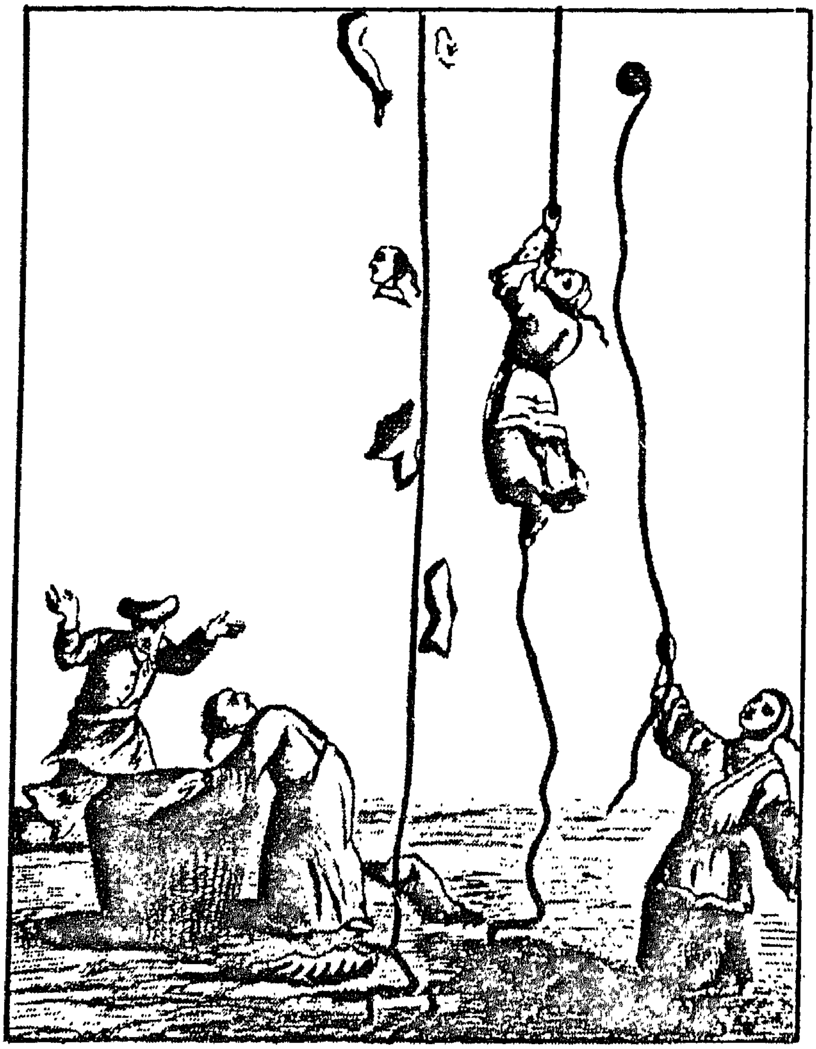
-أرنولد توماس: الدعوة إلى الإسلام، بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى، القاهرة (د.ت)
- إيرين فرانك، ديفيد براونستون: طريق الحرير، ترجمة: أحمد محمود، القاهرة ١٩٩٧م.
- بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين، ط١، القاهرة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م.
- حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول: غزو جنكيز خان للعالم الإسلامى وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية، القاهرة ١٩٤٩م.
- السيد الباز العرينى: المغول، بيروت ١٩٨٦م.
- عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامى، ط١، القاهرة ١٩٩٧م.
- فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى، قدم له وراجعه: جوزيف نسيم يوسف، القاهرة ١٩٧٦م.
- فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، جـ١، بيروت ١٩٨٠م.

- الشرق الإسلامى فى عهد الأيلخانيين، أسرة هولاكو خان، الدوحة ١٩٨٧م.
- لويس شيخو: النصرانية بين قدماء الأتراك والمغول، مجلة الشرق، بيروت، العدد ١٦، ١٩١٣م.، ص ٧٥٤-٧٧٢.
- محمد خميس الزوكة: آسيا، دراسة فى الجغرافيا الإقليمية، الإسكندرية ١٩٨٥م.
- محمود سعيد عمران: المغول وأوروبا، الإسكندرية ١٩٩٧م.
- مصطفى طه بدر: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة ١٩٤٢م.
- نقولا زيادة : الرحالة العرب، القاهرة، ١٩٥٦م.

الأشكـــال والخرائـــط



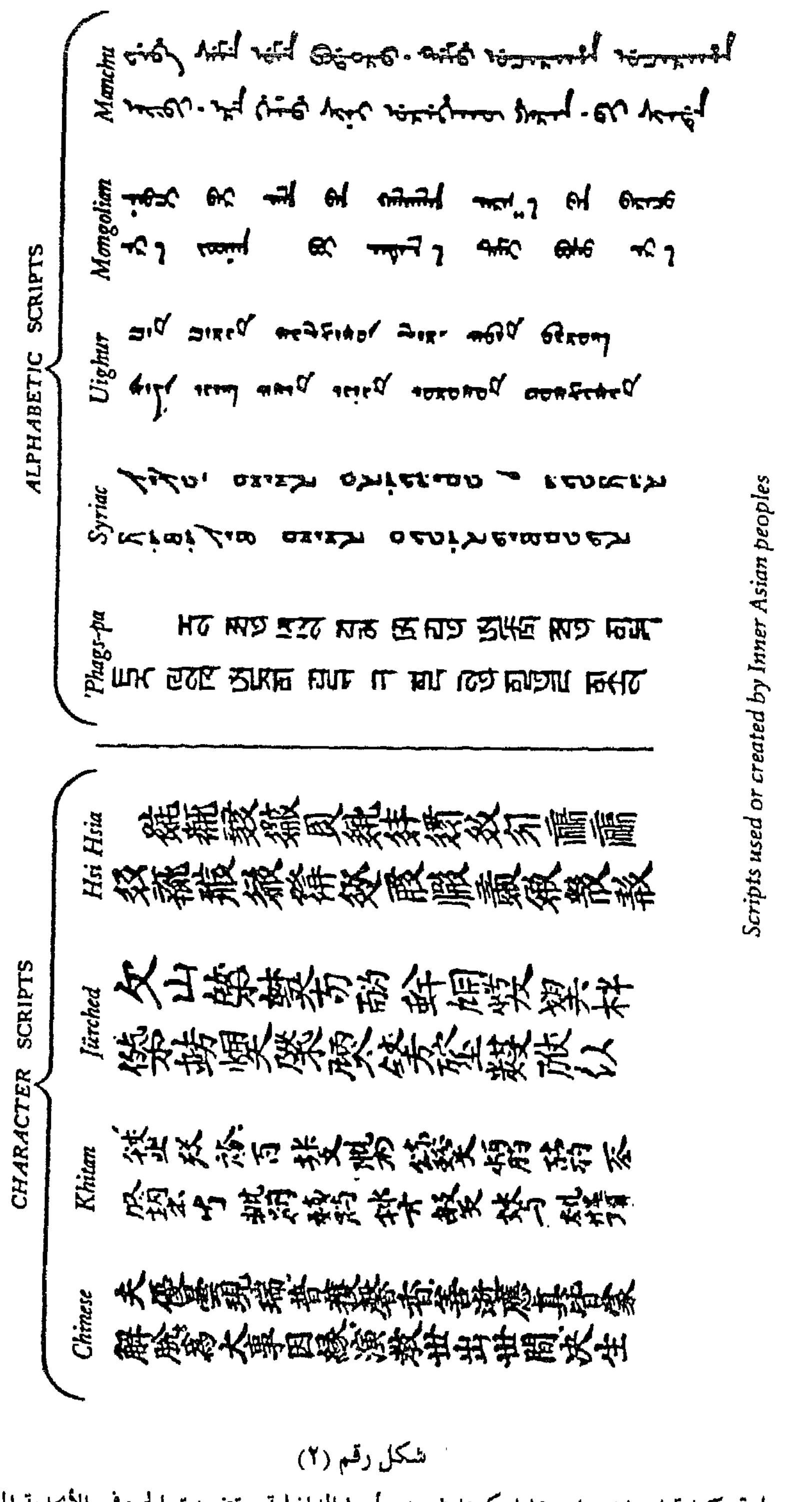
خريطة توضح خط سير رحلة المبشر الفرنسيسكانى أودو ريك دو بوردو نون فى الصين ١٣١٤ ـ ١٣٢٨ م .



شكل رقم (١)

جانب من ألعاب الحواة والسحرة في الصين على عهد أسرة يوان.

نقلاً عن : أيرين فرانك، ديفيد براونستون : المرجع السابق، ص ١٢٨ .



شكل رقم (٢)

طرق كتابة استخدمها وربما ابتكرها شعوب أسيا الداخلية. تضمنت الحروف الأبجدية المغولية وطريقة الكتابة الصينية. نقلاً عن : مورجن

Morgan. D.. Op. Cit., p. 10.